تاريخ أوروبا في العصور الوسطى

معركة شالون

سبع معارك فاصلة غيرت وجه التاريخ

د. أسامة ابراهيم حسيب

المكتب العربي للمعارف

تاريخ أوربا في العصور الوسطى

سبع معارك فاصلة غيرت وجه التاريخ

٢- معركة شالون

بين الهون والرومان

٤٥١م

دكتور/أسامة إبراهيم حسيب

الناشر
المكتب العربي للمعارف

اسم الكتاب : معركة شالون بين الهون والرومان

اسم المؤلف د.أسامة إبراهيم حسيب

تصميم الغلاف : محمود حمدي

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

المكتب العربي للمعارف

١٠ شارع الفريق محمد رشاد حسن -

خلف عمر أفندي - ميدان الحجاز- مصر الجديدة

ت/فاكس: ٢٦٢٣٧١٧٣

بريد إلكتروني : malghaly@yahoo.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

جميع حقوق الطبع والتوزيع مملوكة للناشر ويحظر النقل، أو الترجمة، أو الاقتباس من هذه السلسلة في أي شكل كان جزئيًا أو كليًا بدون إذن خطي من الناشر، وهذه الحقوق محفوظة بالنسبة إلى كل الدول العربية، وقد اتخذت كافة إجراءات التسجيل والحماية في العالم العربي بموجب الاتفاقيات الدولية لحماية الحقوق الفنية والأدبية.

حسيب ، أسامة ابراهيم

معركة شالون بين الهون والرومان ٤٥١م / أسامة ابراهيم حسيب.

- ط١ .- القاهرة : المكتب العربي للمعارف ، [٢٠٠٨]

١٤٤ص ؛ ١٧×٢٤سم .

تدمك ٤٠ ٥٦٨ ٢٧٦ ٩٧٧

١-المعارك الحربية ٢- الامبراطورية الرومانية

أ . العنوان

٣٥٥,٤٨

رقم الإيداع :٢١٤٣٥/٢٠٠٨

الترقيم الدولي : I.S.B.N 977-276-568-4

المقدمـــــــة

المقدمـــــــة

الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملـــك ولـــم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرًا.

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الـــذي تفـــرد بالكمـــال والجلال، فكل ما سواه منقوص، أحمدك اللهم حق حمدك، وأســـتهديك وأستلهمك الرشاد في الأمر كله، وأشهد بوحدانيتك وأشهد أن محمـــدًا عبدك ورسولك إمام المتقين الذي أرسلته رحمة للعـــالمين صـــلى الله عليه وسلم. أما بعد...

على امتداد تاريخ الأمم والشعوب في الشـــرق والغـــرب فـــي الشمال والجنوب، حدثت الكثير من المعارك والحروب، وتميزت كثير من هذه المعارك بأنها كانت معارك فاصلة، ويمكن القول إنها غيرت مجرى التاريخ، نظرًا لأهميتها وما ترتبت عليها من نتائج بالغة الأثر على حياة هذه الأمم والشعوب، وأحدث تغيرات في مســـار تـــاريخ العديد من الشعوب، وإن تباينت أهواء المؤرخين والكتاب ممن سجلوا ودونوا أخبار هذه الأحداث، واختلفت آراؤهم حول أهمية ونتائج هـــذه المعارك.

فالمعارك الحربية تكسب حروبًا وتهدد عروشًا وتعيـــد رســـم الحدود، وقد شهدت كل العصور التاريخية على مر الزمـــان معـــارك أثرت في تشكيل مستقبل البشرية، ويمكن القـــول إن الفريـــق الـــذي انتصر إذا لم ينتصر لتغير وجه التاريخ، إذ أن هذه المعارك بنتائجهـــا هي العامل الوحيد الأكثر تأثيرًا على مصير ومستقبل أي شعب.

وقد ساهمت السياسة والدين والفلسفة والعلـــم فـــي التحـــولات المؤثرة في التاريخ، وتظل مؤثرة بقوة في الأحداث، عنـــدما تمتلـــك القبيلة أو الأمة أو المملكة جيشًا قويًا يســـتطيع أن يحســـم المعـــارك لصالحها.

وعلينا -على مر التاريخ- ألا نقلل من أهمية الحروب المصرية؛ لأن الشعب الذي يكسب المعارك المصيرية يكسب الحرب في النهاية، فالمنتصرون في كل المعارك القوية يحتفظون بسيطرتهم على أراضيهم، ومن حق المنتصر وحده أن يفرض شروطه، ويحصل على أعلى عائد من الشروط التي يفرضها على المهزوم ويسيطر على أرض عدوه وجيرانه، بينما نجد المنهزمين مستعبدين وتدمر حياتهم وقوانينهم ومجتمعاتهم، وتؤثر المعارك الفاصلة هذه في فرض الثقافة الخاصة بهم على المهزومين، وكذلك عقائدهم الدينية وثقافاتهم وحضاراتهم فهي تكشف عن الأسلحة والأساليب العسكرية الجديدة والقادة الذين يؤثرون على النزاعات المستقبلية وعلى رسم الحدود السياسية بين البلدين ويحددون نتائجها. وبعض المعارك اشتهرت في التاريخ بكونها مؤثرة، ليس بسبب نتائجها المباشرة، بل بسبب تأثير دعايتها على الرأي العام.

ومن الصعب في المعارك القديمة مثل معركة شالون (سهل مورياك) Chalons عام ٤٥١ م إيجاد مصادر تتفق على أعداد الجنود المشتركة بين الفريقين وعدد القتلى في الجانبين وكذلك عدد الأسرى وعدد المصابين.

وفي هذه المعارك القديمة هناك عدم اتفاق على مواقعها وأحيانًا في تواريخها التي حدثت فيها، كما أن هناك اختلاف في تهجئة أسماء القادة.

واختلاف تسميات المعارك في الحروب القديمة قد أضحى غموضًا على الوثائق التاريخية.

ومعركة شالون أشعلتها قبائل الهون - HUNS - داخل حدود الإمبراطورية الرومانية، وانهزم فيها الهون في نهاية الأمر ليتم إنقاذ الغرب الأوربي والإمبراطورية الرومانية من عسف تلك الشعوب

الهمجية التي أرادت هدم الإمبراطورية الغربية والقضاء على ما كان بها من تراث وحضارة.

وقد كانت معركة شالون السبب الرئيسي الذي حطم أسطورة جيش الهون الذي لا يقهر وأسهمت في إنقاذ غرب أوربا، بل وأنقذت القسطنطينية من عدو عنيد كان سيظل دائمًا يستنزف مواردها ويهدد أمنها.

لقد كانت معركة شالون حدًّا فاصلاً في حياة الجرمان، حيث استعادوا كرامتهم وهيبتهم من جديد بعد الذل والهوان الذي لاقوة على يد أتيلا وجنوده وذلك عندما تحدى الإمبراطور البيزنطي مارقيان Marcian – أتيلا، وأعلن انتهاء دفع الإتاوة، ودفع هذا التحدي أتيلا إلى قيادة جيشه الضخم من الهون والاتجاه غربًا لبلاد الغال، وواجه أتيلا تحالف جيش الرومان من القوط الغربيين والفرنجة والبورجنديين والألان في إحدى المعارك الفاصلة في التاريخ.

وكانت هذه المعركة بمثابة تهديد خطير كان من الممكن أن يفضي إلى القضاء السريع على مراحل الحضارة الرومانية التي كانت في طريقها للتطور لولا الهزيمة المبكرة التي تعرض لها أتيلا وجيوشه.

والحقيقة أنه لولا معركة شالون وانتصار الرومان على الهون لدمر الغرب الأوربي وضاعت معالم الفكر والحضارة.

د. أسامة إبراهيم حسنيب

الشرقية – يناير ٢٠٠٨م

الفصل الأول

الوضع في
الإمبراطورية الرومانية قبل شالون

لقد مرت الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث والرابع بمرحلة هامة كان لها عظيم الأثر في هدم صرح الحضارة القديمة وبداية العصور الوسطى. وكان من الممكن أن تبقى الإمبراطورية في الغرب الأوربي لفترة أطول رغم الانحلال الذي أخذ ينخر في عظامها، فلولا هجمات الجرمان البرابرة وغزواتهم للإمبراطورية لعاشت فترة أطول، ولكن هذه الغزوات أسرعت بتقويض دعائمها. وقد انقسمت الشعوب الجرمانية وراء جبهتي الراين والدانوب إلى قسمين وهما الشعوب المغولية، ويرجع أصلها إلى منطقة الأستبس في أواسط آسيا الممتدة من جبال أورال حتى جبال ألطاي، واشتملت على العديد من الجماعات مثل السكيثيين – Scytheans – والسارماتيين – Sarmatians – والهون والبلغار والأفار والمجريين والمغول والأتراك، وهم أقوام بدو ورجال لا يعرفون الزراعة، عاشوا على رعي الخيول وتربيتها، ينتقلون من مكان إلى آخر سعيًا وراء العشب والكلأ. أما الجرمان فموطنهم الأصلي شبه جزيرة أسكندناوه[1].

---

[1] Stephenson, C.; Mediaeval History Europe From Second to the sixteenth century, (H.S.A) 1962, P. 48.

أما الشعوب الجرمانية فتنقسم إلى المجموعة الشمالية وهم الذين فضلوا البقاء في شبه جزيرة أسكندناوه وما حولها، حيث تفرعت عنهم الأمم السويدية والنرويجية والدانية الحالية، وتمتد مساكنهم بين الألب والراين.

أما مجموعة الشعوب الجرمانية الغربية فتألفت من قبائل وجماعات مثل الكمبري – Cimbri – والتيوتون – Teutons – والشيروسكي – Cherusci – والشاتي – Chatti – والماركوني – Marcomanni – والكوادي والسويفي والتورنجيين – Turngyni – والجورتنج – Greutungi – والأليماني Alemanni.

أما الشعوب الجرمانية الشرقية فكان منها الواندل Vandals – والقوط Goihs – والجيبيداي Gipidae – واللومبارديين Lamobardi – والسكريين Sciri – والهيرولي Heruli[1].

ومن القبائل الجرمانية التي كانت تصنع التاريخ إبان الفترة ما بين ٣٧٦-٤٥٠م بعد أن استدعى ستيليكو Stilico – الفرق الرومانية من بريطانيا : الإنجليز Angles – والسكسون Saxons – التي بدأت في العبور إلى الجزر البريطانية في أعداد متزايدة عندما وجدوا أن المواطنين الأصليين غير قادرين على صدهم، ولكنهم لم يكملوا فتحهم لبريطانيا إلا في نهاية القرن السادس الميلادي.

كما أن الفرنجة الساليين Salian Franks – الذين كان الإمبراطور جوليان Julian قد سمح لهم بشغل المنطقة التي تقع بين ميوز Meuse وشيلدت Sheldt –مدو سيطرتهم حتى السوم– Somme – وكذلك الألمان Alemanni – والفرنجة الريبوريون

(1) Lot, F., Les invasions Germaniques, Paris. 1931; PP. 30 – 32; Cambridge. Medieval History. Cambridge, 1924, No. 3, 1, PP. 323-330.

Ripaurian Franks – والبرجنديون Burgundian – عبروا أيضًا نهر الراين، وقام الأخيرون بشق طريقهم حتى وصلوا إلى وادي الرون[1]، وكانت هجمات البرابرة هي التي أسرعت بخطى الإمبراطورية نحو مصيرها الذي لا مفر منه.

وعلى أية حال، فإن لفظ "بربري" أو Barbarian الذي أطلقه الرومان على الشعوب المستقرة فيما وراء الراين والدانوب قديم جدًّا، فقد ظهر في الإلياذة، وهو يدل على الازدراء والاحتقار، وتحول معنى هذا اللفظ وأصبح يدل على الشعوب التي وجدها اليونان لا تتحدث اللغة اليونانية، ومن ثم فإن مدلول لفظ بربري عند اليونان أصبح مرادفًا لكلمة فظ أو غير مثقف، ثم تحول وأصبح يستعمل للدلالة على القوى الأجنبية المعادية، التي كانت تهدد الحضارتين اليونانية والرومانية. وما ينبغي أن ندركه أن لفظ بربري لا يعني همجي أو وحشي، ولكنها تعني مرحلة من مراحل التنظيم الاجتماعي والسياسي القبلي في مرحلته البدائية، والذي لم يرق بعد إلى مرحلة الاستقرار المدني وإقامة الدولة ذات الحدود النهائية[2].

وقد بلغت الإمبراطورية الرومانية أقصى اتساع لها زمن الإمبراطور هادريان (١١٧–١٣٨م) فقد شملت جميع أقاليم العالم المعروفة في ذلك الوقت[3]؛ لذلك رأى الإمبراطور ثيودسيوس الكبير

---

(١) جوزيف داهموس: سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٢، ص ٣٢–٣٣.

(2) Daw Son, C. The Making of Europe, London, 1935, P. 68; Cantor, N., Medieval History The Life and Death of civilization, Ch.S.A.), 1969, P. 105.

كريستوفر دوسن: تكوين أوربا – ترجمة محمد زيادة، سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٨٣.

(3) Katz, S, Decline of Rome, New York, 1955, pp. 79-80.

(٣٧٩-٣٩٥) أن يقسم الإمبراطورية بين ولديه أركاديوس وهونوريوس؛ حتى يضمن بقاءها وحمايتها وحسن إدارتها، ومن قبله رأى دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م) أن يقسمها إلى أربعة أقسام بأربع عواصم ليتفرغ كل قسم لحماية نفسه(١).

كما أن الإمبراطور قسطنطين اختط مدينة القسطنطينية (٣٣٠م) ليقي الإمبراطورية من الأخطار، وكان الخطر الماثل يومئذ هو الخطر الشرقي الفارسي المزمن، فضلاً عن حمايتها من خطر الجرمان، وإن اعتبر بعض الكتاب أن بناء القسطنطينية مسئول في بعض النواحي عن ضعف القسم الغربي من الإمبراطورية(٢).

وكان شعب الهون أكثر الشعوب الجرمانية المتبربرة المسئولة عمَّا عُرِف بالتسرب التدريجي للشعوب الجرمانية شبه المتحضرة إلى داخل الإمبراطورية عبر نهري الراين والدانوب، وصار هذا النشاط حركة قوية، وكانت نذيرًا بنهاية العالم القديم في الغرب.

وفي عام ٣٧٥م حصل القوط الغربيين – Visigoths – على موافقة الإمبراطور فالنز Valens – الإمبراطور الروماني سريع الفهم والإدراك على أن يعبروا نهر الدانوب إلى داخل الإمبراطورية، وبذلك جعلوا هذا النهر حصنًا قويًّا في مواجهة الهون.

وبعد ذلك بعامين اتحد هؤلاء القوط الشرقيون Ostrogoths وانضم إليهم الألان، واستطاعوا جميعًا القيام بثورة، وقضوا على فانز وجيشه الروماني في موقعه أديانوبل Adrianople – ٣٧٨م، ولم تفق الإمبراطورية من هذه الكارثة أبدًا.

على أن المخاوف التي انتابت كثيرًا من الرومانيين ٣٧٦م من أن يتعقب الهون القوط الغربيين عبر الدانوب لم تتحقق، كما أن

---

(١) فشر: تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ق ا، دار المعارف، ١٩٥٠، ص ١-١٤.

(٢) إبراهيم علي طرخان: نهايه الإمبراطورية في القرب، ص ٦٨.

التاريخ العام للإمبراطورية الرومانية منذ عام ٣٧٦ حتى عام ٤٥٠ أعطى الهون أهمية قليلة، وخلال تلك الفترة التي امتدت إلى خمسة وسبعين عامًا شغلت التاريخ شعوب متبربرة شمالية، واتسعت الإمبراطورية مما جعل ثيودسيوس خليفة فالنز يحاول تقسيم هذه الإمبراطورية(١).

على أن العوامل التي دفعت الإمبراطور ثيودسيوس إلى هذا التقسيم الرسمي إلى شطرين كانت عوامل ملحة وحاسمة، فقد شهد إبان حكمه، بل قبل أن يلي العرش مدى ما أصاب الإمبراطورية من غزوات مدمرة وصلت إلى قلب الإمبراطورية، فضلا عن الهزائم المشينة والمذلة، كانت أبرز هذه الهزائم في القرن الرابع الميلادي هزيمة الإمبراطور فالنز ومقتله في معركة أدرنه ٣٧٨م أمام جحافل القوط البرابرة(٢).

وهناك عدد غير قليل من المؤرخين يؤكد على أن الهون لم يشاركوا في معركة أدرنه، وأن هذا الافتراض مشكوك فيه، ومن المحتمل أنهم ابتعدوا بأنفسهم عن شئون الإمبراطورية، ويقال إن الهون اكتفوا بنهب وسلب جيرانهم واسترقاقهم لبيعهم كعبيد.

---

(١) جوزيف داهموس: المرجع السامية، صـ ٣١.

(٢) كانت أهم عيوب فالنز كما لخصها المؤرخ أميانوس مارسيللينوس والتي كانت سببًا في الهزيمة، اهتمامه بجمع الثروة إلى حد كبير، غير صبور في الكدح، ميالا إلى القسوة، لم يكن قائدًا عسكريًا في الميدان، وتنقصه الخبرة العسكرية والتدريب، غير مسامح ويعبر عن غضبه بسفك الدماء، وكان مترددًا في اتخاذ القرارات الحاسمة، وكان يسمع المعلومات دون التمييز بين الصادق والمزيف منها، أما بنائه الجسدي فهو متوسط الطول ممتلئ البطن وبشرته داكنة. انظر في ذلك:

- إبراهيم علي طرخان: سقوط الإمبراطورية،، صـ٦٨.

Ammianus, M, Op. cit., Vol. III, Bxxxl, PP. 483-487.00

وإذا كان الهون قد عبروا إقليم الدانوب للمشاركة في نهب وسلب إقليم تراقيا – Thrace – بعد معركة أدرنه، وعادوا إلى موطنهم شمال نهر الدانوب[1]، وإن وافق الإمبراطور فالنز على دخول القوط الغربيين إلى الإمبراطورية لتعمير الأراضي القاحلة في البلقان، وعلى أمل أن يجعل منهم سدًّا منيعًا أمام الهون إذا فكروا في عبور الدانوب، ولا يُعرف عن هذه الاتفاقية سوى أنهم سوف يصبحون حلفاء عسكريين[2]، وإن كان هناك سجل تاريخي عن إغارات عبر الدانوب سنة ٣٨٤م، ولكنها كانت على القوط الغربيين وليست على الرومان، وقد عهد ثودسيوس للقوط مهمة الدفاع عن إقليم تراقيا في مقابل منطقتي مؤيزيا – Moesia – وداكيا Dacia – ، وكان ثيودسيوس يهدف لإرضاء القوط ليجعلهم بمثابة الدرع الواقي ضد هجمات الهون على الإمبراطورية[3].

ومما يثبت الدور الرئيسي للهون في مواجهة الإمبراطورية الرومانية إبان نصف القرن التالي لمعركة أدرنه إعداد القوات العسكرية وتجهيزها للدفاع عنها إذا احتاج الأباطرة الشرعيون إلى فرسان الهون بدرجة ملحة، وكذلك الأباطرة الانتهازيون الذين زعموا أحقيتهم للعرش الإمبراطوري.

ففي سنة ٣٢٨م نجح الإمبراطور ثيودسيوس في إلحاق الهزيمة بماكسيموس – Maximus – المدعي بأحقيته في العرش بفضل مساعدة الهون والقوات المساعدة من البرابرة الآخرين. وقد احتفظ ستليكو بقوات من الهون في جيشه إبان حملاته ضد الأريك كما فعل إيضًا عندما تصدى لمنافسة إيوجينوس – Eugenius – الذي ادعى

(1) Outo, J.; The world of the Huns, California, 1973, P. 38.

(2) Ammianus, M., Op. cit., Vol, III, PP. 401-403.

(3) Outo, J.. Op. cit., PP. 38-39.

أحقيته في العرش بل إن روفينوس "الرجل القوي" في القسطنطينية إبان عهد الإمبراطور أركاديوس -Arcadius- "غير المقتدر" واحتفظ بحرس شخصي من الهون، ووصل الأمر إلى أن سمح روفينوس لآلاف من الهون بالعبور إلى تراقيا، ومعهم زوجاتهم وأطفالهم، حيث استقروا في أراضي منحتها الحكومة الإمبراطورية لهم(١).

لذلك كان هناك حاجة ملحة إلى تقسيم الإمبراطورية بعد دخول عدد من قبائل البرابرة الجرمان في الإمبراطورية التي اتسعت، وقد انقسمت الإمبراطورية على أثر وفاة ثيودسيوس في عام ٣٩٥م إلى قسمين كبيرين هما:

القسم الشرقي: وهو الذي عرف فيما بعد بالإمبراطورية الرومانية الشرقية، وعرف فيما بعد أيضا بالإمبراطورية الشرقية أو الإمبراطورية البيزنطية، ويشمل: تراقيا وداكيا ومقدونيا وآسيا الصغرى وسوريا ومصر، أي أنه امتد من حوض الدانوب شمالا إلى مشارف أثيوبيا جنوبًا، وإلى حدود فارس شرقًا، ويحكم هذا القسم ابنه الأكبر أركاديوس، وكان عمره عند ولايته حوالي ثمانية عشر عامًا. أما القسم الثاني فكان يتكون من إيطاليا ومعها ولايات نوريكوم وبانونيا ودالماشيا، وكذلك أفريقيا والغال وأسبانيا وبريطانيا، وقد ولي شئون هذا القسم الابن الثاني للإمبراطور ثيودسيوس وهو هونوريوس، وهو صبي لا يتجاوز الحادية عشرة من عمره تقريبًا، وقسمت ولاية إليريا -Illyricum- بين الاثنين نظرًا لغناها بالمال والرجال(٢).

---

(١) جوزيف داهموس: المرجع السابق، ص ٣٣.

(٢) إبراهيم علي طرخان: نهاية الإمبراطورية في الغرب، صـ ٦٨-٦٩.

وكانت الأميرة جالا بلاسيديا Galla Placidia – إبنه الإمبراطور ثيودسيوس قد وصفت بأنها الرجل الحقيقي في أسرتها، فعند تقسيم الإمبراطورية وضعت تحت الوصاية؛ فأركاديوس المريض في الشرق وضع تحت وصاية الخصي(*) اليوناني روفينوس – Rufinus، وهونوريوس في الغرب وضع تحت وصاية القائد العسكري ستليكو الجرماني، وقد كانا صاحبا شخصية ضعيفة إلى درجة أن بعض المؤرخين ينسبون أسباب سقوط الإمبراطورية في الغرب إلى عدم كفاءتهما من جهة، وإلى وضعها تحت الوصاية من جهة أخرى[1].

وبدأت الإمبراطورية في الانحلال في عهد خلفاء ثيودسيوس، مما زاد في ثورة القوط ضد الإمبراطورية، حيث اختاروا الأريك Alaric الجسور ملكًا عليهم وكونوا جيشا لهم، وقاموا بثورة ضد الإمبراطورية الرومانية والخروج على شروط المعاهدين، وكان هناك أكثر من سبب دفع القوط الغربيين –وعلى رأسهم الأريك إلى الثورة– ومنها: الظلم الذي وقع على القوط وتذمرهم في بلاد أركاديوس، حيث اقترح عليه بعض مستشاريه طرد القوط إلى ما وراء الدانوب، وكان أول عمل قام به أركاديوس ضدهم هو إنقاص رواتبهم وقطع كل المنح

* الخصيان أو الأغوات هم الرجال الوحيدون الذين يمكنهم دخول خدر الحريم "أو الدخول على النساء، ويقل دورهم في ثبوت أفراد الشعب" وكان الخصيان يجلبون من بلاد القوقاز، ويكلف الدولة ذلك كثيرًا من المال، وهناك قوانين صارمة تحرم عملية خصاء الأطفال والرقيق الذين يولدون في الإمبراطورية، ولكن نتيجة لكثرة أعداد هؤلاء الخصيان نتأكد من أن هذه القوانين لم تراعى وتطبق كما ينبغي، وكانت هناك نسبة ضخمة في القسطنطينية من الخصيان، وكان هناك رتب عالية يحتفظ بها الخصيان في الجيش والأسطول. انظر:

– عفاف صبرة: الإمبراطوريتان البيزنطيين والرومانيين ومن شارلمان، النهضة العربية، ١٩٩٢، صـ ٢٢٤.

(1) Oxford Dictionary of Byzantium, 3 Vok, Oxford, P. 818.

والصلات التي تمنحها الإمبراطورية الشرقية، هذا بالإضافة إلى استيائهم من معاهدة ثيودسيوس التي تفرض عليهم التزامات عسكرية يؤدونها للإمبراطورية[١].

وهنا أخذ نفوذ الجرمان السياسي والحربي يزداد قوة داخل الإمبراطورية، فاعتمد هونوريوس في الغرب على قائد وندالي قدير وهو ستليكو ومنحه تفويضًا تامًّا من الناحية الحربية، في حين اعتمد أركاديوس في الشرق على روفينوس، وهو وزير قوطي عرف بالأنانية والقسوة وعدم الإخلاص.

ويبدو أن القوط الغربيين كانوا في حالة استياء منذ اتفاقهم مع الإمبراطورية عام ٣٨٢م؛ لأنهم لم يلبثوا أن تبرموا بما ألقته عليهم هذه الاتفاقية من التزامات وخدمات عسكرية يؤدونها للإمبراطورية في الوقت الذي كان ينشدون حياة الاستقرار والهدوء؛ لذلك ثاروا عام ٣٩٥م تحت زعامة الأريك فغزو مقدونيا وتساليا، واقتحموا أثينا ونهبوا كورنثه حتى اقتربوا من القسطنطينية، وكانت حكومة الإمبراطورية الشرقية في حالة تبلد وجمود فلم تتحرك لدفع خطر القوط الغربيين[٢].

---

(١) بدأت العلاقات بين القوط والرومان تتغير إلى حالة عدائية عقب وفاة الإمبراطور قسطنطيوس عام ٣٦١، وما أن اعتلى فالنتيان وفالنز العرش حتى أصبحت المواجهة مكشوفة مع القوط الذين هاجمت بعض قبائلهم تراقيا ودمرتها أوامر عام ٣٦٤م، وتوسل القوط للإمبراطور فالنز أن يسمح لهم بالعيش في الإمبراطورية خوفًا من خطر الهون، وسمح لهم بالاستقرار على الحدود كمعاهدين، ولقوا الأمرَّين من سوء معاملة الرومان، على الرغم من توصيات الإمبراطور بحسن المعاملة، وعدم زيادة الأسعار، وسرعان ما خرج القوط على شروط المعاهدة، وعبروا جبال البلقان عام ٣٧٧م ودخلوا تراقيا ومقدونيا، ووقعت معركة أدرنه عام ٣٧٨م وانهزم الرومان وقتل فالنز نفسه.

- Ammianus, Op. cit, Vol. III, PP. 335-347; Ostoryorsky, History of Byzantine State, Trans J. Hussey, 1980, P. 5.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ١، صـ ٨٥-٨٦.=

وعندما أصبح الأريك على أبـواب القسـطنطينية خـرج لـه الوصي على عرش القسم الشرقي روفينوس[1] لـيس مـدافعًا عـن العاصمة بل دافعًا مبلغًا من المال للأريك وجماعته نظير تراجعهم عن أسوار القسطنطينية، وكان ذلك في مارس عام ٣٩٥م[2].

وقبض الأريك المال من رفينوس(*) واتجه غربًا، لأن مطـامع الأريك لم تقف عند هذا الحد؛ لأنه كان يعمل على الحصـول علـى منصب رفيع في حكومة الإمبراطورية الرومانية؛ قائدًا أعلى للجـيش الرومانـي، وكذلك على قطعة أرض تكون موطنا دائمًا للقوط الغربيين، وكانت جهته التي أوعز إليه روفينوس بالتوجه إليها والاستيلاء عليها هي الليريا[3]، ولكن الوصي على العرش في الغرب ستليكو حال بينه وبين الاستيلاء على الليريا، حيث كانت تابعة للقسـم الغربـي مـن الإمبراطورية، وتمكن ستليكو من هزيمة الأريـك وجحافلـه هزيمـة مروعة بالقرب من بولانزو Pollanzo في مارس عام ٤٠٢م، وأنزل به الهزيمة الثانية في موقعة فيرونا Virona – في عام ٤٠٣م. وفتت هذه الهزائم في عضد الأريك، فأقدم على التفاوض مع ستليكو، حيـث

= - Com. Med. Hist., Vol. 1, P. 260.

(1) Oxford Dictionary, P. 815.

(٢) إبراهيم طرخان: دولة القوط الغربيين، صـ٦٥-٦٦.

(*) روفينوس: كان يشغل منصب الوالي البريتوري في عهد الإمبراطور ثيودسيوس الأول، وعندما ذهب ثيودسيوس إلى الغرب عينه مستشارًا لابنه أركاديوس، وقد اتهم أنه شجع الأريك لمهاجمة اليونان، وقد كان يشعر بالغيرة الشديدة تجاه ستليكو الذي كان له قـوة عسكرية في الغرب، وقد قتله القوطي جانياس Gains – بناء على تعليمات من ستليكو وذلك في السابع والعشرون من نوفمبر عام ٣٩٥، وكان يأمل في أن يزوج ابنـه إلـى الإمبراطور أركاديوس. انظر:

- Oxford Dictionary, P. 815.

(٣) إسحق عبيد: من الأريك إلى جسننيان، القاهرة، ١٩٧٧، صـ٢٣.

وافق على العودة إلى إيلليريا بعد أن حصل على مبلغ ضخم من المال، وهكذا نجح ستليكو في إنقاذ روما.

وإذا كان الأريك انصرف عن روما، فإن ذلك كان مؤقتًا فقط، وإن واتته الفرصة عندما اتهم ستليكو بالخيانة، وتم إعدامه هو وابنه عام ٤٠٨م؛ ويرجع سبب إعدامه إلى غيره رجال البلاط الروماني منه؛ لأنه كان اليد الطولي لهونوريوس، كما أنه كان من أصل جرماني وأريوسي المذهب، وكان اغتياله بمثابة فتح الطريق أمام الأريك لحصار روما(١).

وقد وجد الأريك الفرصة سانحة بعد مقتل ستليكو -الرجل الوحيد الذي استطاع إنزال الهزيمة به- فزحف على رأس رجاله من القوط الغربيين إلى روما التي تعرضت لأول مرة منذ عهد هانيبال لحصار جيوش أجنبية معادية. وعندما فشلت المفاوضات بين الأريك والإمبراطور اقتحم القوط روما عام ٤١٠م، فنهبوا بيوت نبلائها وأحرقوها، ولكنهم لم يحدثوا مذبحة بين الأهالي، كما احترموا الكنائس على الرغم من أريوسيتهم(٢)، واستباحوا روما لمدة ستة أيام(٣)، وقيل لمدة ثلاثة أيام فقط(٤).

---

(١) ستليكو: كان ابن أحد الضباط المرتزقة، وهو نصف وندالي وعمل في الجيش وتزوج من ابنة شقيق الإمبراطور الروماني سيرينا Serena، وقد عين كونتا على كل قوات الإمبراطور عام ٣٨٥م، ثم عمل قائدًا للجيش، وبقي في ذلك المنصب حتى موته، وعين من قبل الإمبراطور ثيودسيوس وصيًا على ابنه الإمبراطور هونوريوس، وكان رجل حرب من الطراز الأول، وزوج ابنته ماريا من الإمبراطور هونوريوس، الذي عارض إعدامه، ولكن مجلس الشيوخ أعدمه عام ٤٠٨ رغم أنفه.

- Hodykin, t., Italy and Herinvaders, 8 Vols, Second, edit: on, London, 1919, P. 760.

- طرفان: القوط الغربيين، صـ ٦٩ - ٧٠.

(٢) سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ٨٧.

(3) Hodg King, Italy, Vol. 1, PP. 782-794.

(4) Simons, Brabarian Europe, P. 37.

وتوفي الأريك عام ٤١٠م، وانتخب القوط صهره أتولف – Ataulf (٤١٠-٤١٥م)، والذي دخل في مفاوضات مع الإمبراطور هونوريوس انتهت بمعاهدة عام ٤١٢م وافق الإمبراطور بمقتضاها على الاعتراف بالقوط الغربيين كحلفاء ومعاهدين وأعطاهم إقليم أكوتين الذي يمتد من اللوار حتى البرانس في أسبانيا وكذلك ناربونة الغالية – Narbonnaise – على أن الأمر الذي أجبر الإمبراطور هونوريسوس على عقد الاتفاقية مع القوط هو وقوع أخته الأميرة جالا بلاسيديا أسيرة في يد الأريك[1].

ويذكر بعض المؤرخين أن الرجل قد فكر للحظة في إزالة الإمبراطورية الرومانية وإقامة إمبراطورية قوطية مكانها، ولكنه عدل عن ذلك؛ لأن القوط لا يصلحون أن يكونوا ورثة الرومان، ولاسيما وأنهم لا يقبلون القوانين، وفي النهاية اتخذ لقب " باعث مجد الإمبراطورية الرومانية"، وقد وقع في غرام الأميرة بلاسيديا، ولم يقم بفك أسرها، ولكنه تزوجها في عاصمة القوط الجديدة في ناربون عام ٤١٤م.

وقد وافق الإمبراطور هونوريوس؛ لأنه كان يرغب في كسب ود أتولف فوافق على زواجه من شقيقته.

وقد مثل هذا الزواج أهمية خاصة؛ لأنه بمثابة اتحاد بين الرومان والقوط، وقد أثار هذا الزواج قائد الجيش الروماني أتولف الذي كان ينوي الزواج من جالا، وأثار أيضًا أطماعه في بلاد الغال، وقاد قسطنطيوس قواته واتجه إلى هناك، وغادر أتولف إلى أسبانيا عبر جبال البرانس. وفي برشلونة اغتيل أتولف عام ٤١٥م، واختار القوط الغربيون سيجريك – Sigeric – ملكًا عليهم، ولم يدم في الحكم

---

[1] Deanesly, M., A History of Early Medieval Europe, London, 1956, P. 77.

طويلا؛ لأنه قتل أولاد أتولف، وعامل جالا معاملة سيئة، واغتيل بعد أسبوع واحد من توليه العرش على يد الزعيم القوطي واليا- Wallia[١].

وقام واليا بعقد معاهدة سلام مع الرومان عام ٤١٨م، ووافقوا بمقتضاها على استقرار القوط الغربيين في إقليم أكوتين جنوب غالبه، ووافق الرومان على مدهم بالقمح، ووافق واليا على العمل من أجل طرد الواندل والألان والسويفي - Suevi - إلى الجزء الشمالي الغربي من أسبانيا، واعترف الرومان بواليا حاكمًا على أقطانيا.

وأثناء هذه الأحداث عادت الأميرة جالا إلى روما، وعند عودتها نجد أن قنسطنطين - Constantine - الذي كان يشغل منصب بطريق Patrician - وكان يطمع في الزواج منها من البداية وقبل زواجها الأول، وكانت مواصفات هذا الشخص غير مشجعه لها على الاقتران به، فقد كان مستبدًا وطاغية وأسود الوجه، ووجدت الأميرة نفسها مرغمة على الزواج منه عام ٤١٧م، ونتيجة هذا الزواج كان طفلة أطلق عليها هونوريا Honoria تيمنا باسم خالها هونوريوس، وفي عام ٤١٩م أنجبت طفلا أطلق عليه اسم فالنتيان Valentine - وحمل لقب Noblilissimus - أي وريث العرش الإمبراطوري، لأن هونوريوس لم ينجب. ورفع قنسطنطين إلى مرتبة إمبراطور مشارك - Co- Emperor - في عام ٤١٢م وحملت جالا لقب أغسطا - Augusta - ووصلت هذه الأخبار إلى بلاط ثيودسيوس الثاني في القسطنطنية الذي رفض الاعتراف بهذه المناصب، وتوفي قنسطنطين بعد ستة أشهر فقط من ترقيته[٢].

---

(1) Hodykin, Op. cit., Vol., PP. 819-835; Lot, The end of the Ancient world and the Beginnings the Middle Ages, London, 1931, P. 205.

(2) Hodgkin, Op. cit., Vol. 1, P. 844; Bradley, The Goths, PP.101-103; Shmidt, The risigoths im Gaul, Vol., P. 278.

وعادت جالا إلى بلاط شقيقها هونوريوس في رافنا، وأصبح هونوريوس من الناحية العقلية أقل توازنًا، وقد وقع في غرام شقيقته جالا، حيث كان يقوم بتقبيلها قبلات غريزية أمام الجميع، وعندما وجد أن حبه من طرف واحد، تحول إلى الشك والغيرة فيها والهجوم عليها، وبحثت الأميرة عن ملجأ لها ووجدته في بلاط شقيقها ثيودسيوس الثاني إمبراطور الشرق، وذهبت إلى القسطنطنية مصطحبة أطفالها معها في عام ٤٢٣م، وتلاقت العائلتان بشكل ودي ووصل إلى درجة الاتفاق على زواج فالنتيان الذي كان لا يزال في الرابعة من عمره على ابنه ثيودسيوس التي كانت طفلة، وكانت تدعى إيدوكسيا – Eudoxia(١).

وقامت مشكلة حول ولاية العرش في الغرب في نهاية صيف عام ٤٢٣م، حيث توفي الإمبراطور هونوريوس نتيجة إصابته بمرض الاستسقاء -Dropsy- وتولى خلفا له حنا رئيس الموثقين، وكان الساعي في الأمر قسطينوس -Castinus- القائد العام للجيش الروماني في الغرب، ويرجع ذلك إلى تجنب النزاع بين الأوصياء على السلطة، والخوف من الصراع الداخلي إذ تم تولية فالنتيان الطفل،

---

(١) إيدوكسيا: ابنة الإمبراطور ثيودسيوس الثاني، وزوجة فالنتيان الثالث، وكانت امرأة جميلة صغيرة في السن، منغمة في أهوائها تحتقر زوجها، وكان الكونت جون يحظى بثقتها ويتمتع بحظوة لديها، حتى أن الناس كان يقولون أنه الأب الحقيقي لثيودسيوس الأصغر، ومع ذلك فإن الزوج التقي اعتبر مولد ابنه حادثًا موفقًا ومشرفًا. ومنح الطفل الملكي لقب قيصر ولقب أغسطس، وكان هذا تكريمًا لم يسبق له مثيل، ولم تمر أربعة سنوات حتى ماتت إيدوكسيا نتيجة إجهاض، ولم ترى النبوءة التي قالت أنها سوف تحكم طويلا. انظر:

– جيون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، صـ ١٦٢.

- Hodgkin, Vol. 1, P. 850, Johnjulins, Norwish. Byzantium, The Early Centuries, London, 1988, P. 145.

إذ كان يبلغ من العمر أربع سنوات فقط[1]، ولكن الإمبراطور ثيودسيوس في الشرق أصر أن يتولى العرش في الغرب بشخص من أسرة ثيودسيوس العظيم، فمنح فالنتيان لقب قيصر – Caesar – وأرسله وأمه على رأس حملة إلى إيطاليا كي يستردا حقوقهما في العرش[2].

وحكم الإمبراطور المغتصب حنا سنتين (٤٢٣-٤٢٥م)، وأصر الإمبراطور ثيودسيوس على استرجاع القسم الغربي، وأعد لذلك جيشًا قويًّا بقيادة أبرع قواده الحربيين وهم: أردابريوس Ardaburius – الألاني (إيراني)، وابنه أسبار -Aspar – وبعث مع الجيش بالطفل فالنتيان، وكان الإمبراطور مصرًّا على قيادة الجيش بنفسه لولا اعتلال صحته، وقاد أردابريوس الأسطول البيزنطي، غير أن عاصفة بحرية هبت عليه في البحر الأدرياتيكي جعلته يجنح إلى رافنا، ووقع أسيرًا، ولكن وصلت بقية القوات بقيادة ابنه أسبار، ونجح الجيش البيزنطي في القضاء على الإمبراطور المغتصب حنا، وتم قتله والتشهير به في ملعب أكويليا عام ٤٢٥. وتولى فالنتيان الحكم تحت اسم فالنتيان الثالث (٤٢٣-٤٥٥م) تحت وصاية أمه جالا وهي في سن الخامسة والثلاثين، وحكمت بالوصاية لمدة خمسة وعشرين عامًا[3].

وإبان النزاع الذي نشب حول ارتقاء فالنتيان الثالث الحكم في الإمبراطورية الغربية، ظهر على مسرح الأحداث أعظم قائدين في الإمبراطورية الرومانية أحدهما: الكونت بونيفاس Boniface والي

---

(1) Edit, Historians History, P. 572.

(2) Jones, The Decline in the Ancient World, P. 78.

(3) Edit, Hist. History, Ob. Cit, P. 573.

- إبراهيم طرخان: نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب، صـ ٧٠.

أفريقيا وهو من أصل روماني، وله شهرة واسعة في الأعمال الحربية وصيت رائع في التقى والورع، وكان يخطط للاستيلاء على أفريقيا منتهزًا فرصة تواجد وتوافد القبائل الجرمانية على المنطقة وخصوصًا قبائل الواندل الذين أداروا دفة الهجوم من الجنوب الأسباني إلى الشمال الأفريقي وذلك بعد تولي القائد الواندلي جذريك الملك عام ٤٢٨م(١).

والقائد الثاني هو إيتيوس -Aetius – وهو قائد روماني من فونيسيا تولى منصب القائد العام وعُين بطريقًا عام ٤٣٥م، ويدين بنجاحه إلى موهبته العسكرية؛ لأنه كان رهينة في بلاط الهون، واستطاع أن يكون صداقات مع الهون، ونجح في أن يجعل البرابرة في غالة وأسبانيا محالفين له ومستعدين لمساندته في أي وقت، واستطاع إيتيوس في عام ٤٢٩م التخلص من القائد العام للجيوش الرومانية البطريق فيلكس - Felix – (٤٢٦-٤٢٩م)، وكان قد خلف قسطنيوس في منصب قائد الجيوش، ولكنه كان أقل كفاءة من بونيفاس وإيتيوس(٢).

---

(١) جذريك الأعرج Gaiseric The Lame (٤٢٨-٤٧٧م) وهو وندالي من الأسدنج، ويعتبر من أعظم رجال عصره، عرف بالذكاء والتقشف والزهد، لا يهاب القتال، قاسٍ على الأعداء، موهوب في المناورات السياسية، وأثبت ذلك أنه على جانب كبير من الكفاءة والمقدرة، وعندما استولى على البلاد الواقعة من طنجة حتى طرابلس، وحرم روما من تموينها من الغلال، انظر في ذلك:

- Hodgkin, Op. cit., Vol. 1, P. 850; Wallace.
- Hadrill, The Barbarian West, London, 1952, P. 93.

(2) Jones, The Decline Ancient world, P. 78; Previte – Orton, the chorter Cambridge, Medieval History, Vol. 1, 1971, PP. 88-89.

وقد أثار ما فعله إيتيوس مخاوف جالابلاسيديا، وخشيت من ازدياد نفوذه، لذلك عزمت على كسر شوكته والقضاء عليه. فقامت باستدعاء كونت بونيفاس في عام ٤٣١م، ليتولى منصب القيادة العامة للجيش الذي خلى بمقتل فيلكس، وقامت بلاسيديا بإشارة حفيظة إيتيوس، فلم يقف ساكنًا، فتصدى بونيفاس لإيتيوس وحاربه، ولكنه انهزم أمام بونيفاس قرب مدينة ريمني -Rimini- في إيطاليا، وهرب إيتيوس إلى حلفائه من الهون، ولمن ينعم بونيفاس بالنصر طويلا، إذ أن الجرح الذي أصابه في المعركة لم يمهله عمرًا أطول، فمات عام ٤٣٢م، وخلفه سباستيان -Sebastian- زوج ابنته، وبهذا تخلص إيتيوس من قائد قوي يمكن أن يتصدى له، فعاد على رأس قواته إلى إيطاليا في العام التالي عام ٤٣٣م، وأجبر بلاسيديا على تعيينه قائدًا عامًّا للقوات الرومانية[١].

وكان بونيفاس قد أوصى زوجته -وهي ثرية أسبانية قبل وفاته- بألا تمانع في الزواج من إيتيوس إذا طلب ذلك، غير أن خصمه الذي عاد بقوات من الهون، لم يستطع أن يفيد من نبل كونت بونيفاس، فلم يلبث أن طرد سباستيان عام ٤٣٣م بعد أن فشلت بلاسيديا في حمايته، وأخيرًا اضطرت الإمبراطورة أن تصفح عن إيتيوس وتوليه منصب القيادة العامة، وبذلك ألقت بمصيرها ومصير ابنها ومصير الإمبراطورية الغربية بين يدي هذا القائد العاتي المتسلط. وظل يطارد سباستيان، فينقله من ولاية إلى أخرى حتى مات سباستيان كمدًا وهو في خدمة جذريك الواندالي[٢].

---

(1) Boak, A. r, A History of Rome to 565 A.D, New York, P. 383; Villaria, The Barbariv Italy, PP. 91-92.

(٢) إبراهيم علي طرخان: نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب، صـ ٧١-٧٢.

ومنح إيتيوس لقب "بطريق" وصار السيد المطلق في حكم الإمبراطورية الغربية، ونعته الكتاب المعاصرون أحيانًا "بالدوق"، والواقع أنه كان يتميز بالمهارة الحربية والحصافة السياسية التي لم يناظره فيها أحد، ودلت طريقة وصوله إلى السلطة على أن البقاء للأقوى أو الأصلح، وكان باستطاعته أن يلي العرش لو أراد، ولكنه اكتفى بممارسة السلطة عمليًّا، والسيطرة على جميع الخطوط، فضلا عن أن الإمبراطور وأمه صارا تحت رحمته، فوفر للإمبراطور الفراغ والترف والهدوء، وبدا هو في ثوب بطل وطني، والحقيقة أنه كان كذلك، إذ حمى الإمبراطورية ما يقرب من عشرين عامًا[١].

وعلى الرغم من أن القائد إيتيوس قد حجب الإمبراطور فالنتيان وأمه بلاسيديا عن الظهور والسلطة والنفوذ والحكم، فلم يعد لهم أي سلطة أو ظهور لدى الشعب، إلا أن الحقيقة التي لا يستطيع أحد إنكارها هو أن هذا القائد حمى الإمبراطورية من أعدائها من الجرمان المتبربرين؛ ذلك أنه وجه كل جهوده الحربية والدبلوماسية للحفاظ على نفوذ الإمبراطورية، حيث حافظ على نفوذ الإمبراطورية في بلاد الغال، وصد جحافل الهون (حلفائه القدامى) الذين استولوا على المنطقة التي تشغلها حاليًا هنغاريا ورومانيا وجنوب روسيا، وفرض سيطرته على الفرنجة في الشمال والبرجنديين في الشرق والقوط في الغرب[٢].

ولما لم يكن للإمبرطور فالنتيان الثالث ولد، فقد طمع إيتيوس في أن يمهد الطريق لأن يلي ابنه العرش، وكان يُسمى هذا الابن جودنتيوس -Gudentius- مثل جده، واتفق مع الامبراطور المغلوب

---

(١) إبراهيم علي طرخان: نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب، صـ٧٢.

- Edit, Hist. History, Op. cit. P. 580.

(2) Boak, Op. cit., PP. 383-384, Lot, The end the ancient world, P. 210.

على أمره على أن يتزوج هذا الابن من ابنة فالنتيان، وتظاهر الامبراطور بالرضا، ولكنه كان يُبيِّت أمرًا هو وخصيه هرقل، واستدرج الإمبراطور إيتيوس إلى القصر في روما بحجة مناقشته في مسألة الزواج، ولم يكد القائد إيتيوس يدخل القصر، حتى بادره الإمبراطور بقوله: "اعتبر أن مسألة الاتفاق السابق الخاص بأمر الزواج، كأن لم يكن".

وبادره على الفور بطعنة من سيفه، تلتها طعنات محمومة من رجاله حتى أجهزوا عليه.

وكذلك استدرج الإمبراطور كبار أصدقاء إيتيوس وقتلهم بنفس الطريقة الغادرة(١).

ولقد أخطأ الإمبراطور فالنتيان الثالث خطأ جسيمًا عندما قتل قائده المظفر إيتيوس، وهو في ذلك يشبه خاله هونوريوس يوم قتل قائده العظيم ستليكو الواندلي، فكلاهما قتل قائدًا أسدى للإمبراطورية الجليل من الخدمات، وكلا الحادثتين جرتا الإمبراطورية إلى الكثير من الكوارث، كان من الممكن التقليل منها أو تجنبها إن لزم التجنب(٢).

* * *

الهـون:

يحدث بين الفينة والفينة في التاريخ الأوربي أن تفتح نافذة على مصراعيها بغتة فنطل منها على إقليم مجهول من سهوب مترامية، أو صحراوات من حصباء أو رمال أو مناطق من الحجر الأسود البراق أو مراع فوق الجبال الشامخة، وتتحرك فوق سطحها ثلل صغيرة من الراكبة، وهي تسوق أمامها قطعانًا من الغنم وأرعيلا من الخيل، فإذا

---

(١) إبراهيم طرخان: نهاية الإمبراطورية في الغرب، صـ٧٢.

(٢) إبراهيم طرخان: نهاية الإمبراطورية في الغرب، صـ٧٢.

حل الصيف وجدتهم بعيدًا في أقصى الشمال ينتجعون السهول العظيمة التي تمتد حتى غابات الصنوبر السيبرية، فإذا اقترب الخريف قوضت الخيام وحملت وانطلقت المخيمات المكونة من خمس أو ست عائلات في طريقها نحو الجنوب، وهي تخترق على التعاقب على سهوب الطفل العظيمة والسهوب الملحة وصحراوات الحصباء، وفيافي الرمال المتنقلة، حتى يصل القوم إلى حوض بحر قزوين وبحر آرال[1].

وبعض هذه القائل تجتاز حوالي عشر درجات من خطوط العرض كل عام، وهي مسافة قد تصل إلى ألف ميل ذهابًا ومثلها إيابًا.

والرحلة ضرورية إذ أن السهل الشمالي يغطيه في الشتاء طبقة سميكة من الثلج، فإذا حل الصيف جففت حرارته كل ما في الجنوب من كلأ، وقد أفضى قيام هذه الظروف على مر القرون إلى نشوء الثقافة البدوية.

ولكي يتم بسرعة قطع مسافات مترامية من الأراضي الصحراوية، رُبيّ جنس من الخيل ليستطيع العدو عشرين ميلا في الدفعة الواحدة، وأن يقطع في اليوم الواحد أكثر من مائة ميل، ويقضي الرجال حياتهم على ظهور الجياد فتنجرف أقدامهم إلى الخارج، ولا تصيب (سمانة) الساق إلا حظًا ضئيلا من النمو، وهم قوم من العنصر المغولي مكتنزي الأجسام، كبار الرءوس قمحي اللون، عيونهم مشقوقة وأفواههم كبيرة وشعرهم أسود صلب[2].

---

(١) موس (هـ. سانت) ميلاد العصور الوسطى، ترجمة عبد العزيز جاويد، مراجعة السيد الباذ العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨، صـ٩٣-٩٤.

(٢) موس: المرجع السابق، صـ٩٤، محمد مرسي الشيخ: أوربا العصور الوسطى، صـ٩٨-٩٩.

- Ammianus, Op. cit., Vol. III, P. 384.

وقبائل الهون قبائل رحل من العنصر المغـولي عرفـوا فـي أوطانهم الأسيوية باسم هسيونج هو Hsiung -Hu، وفـي التـاريخ باسم الهون، وكانوا يعيشون في شمال الصين الحالية المعروفة باسـم منغوليا، وعاشوا في أعالي النهر الأصفر -هوانج هو - شمال ولايـة كان - سو Kan – Sou الصينية، وبدءوا التوسع والانتشار في القرن الثاني قبل الميلاد حتى وصلوا بنفوذهم غرب بحيرة بلكاس، وتمكنـوا من القضاء على إمبراطورية الأورز Aorses - الواقعة في منطقـة السهوب بين بحيرة آرال وجنوب جبال الأورال، وفي القـرن الثـاني والثالث سيطروا على شمال الصين فيما عرف اليوم باسـم منغوليـا، وفي منغوليا لم يطب المقام للهون؛ بسبب زيادة أعدادها، أو عوامـل المناخ، أو الصراعات بينهم، أو قلة المؤن(1).

ويذكر بيوري أن الهون أمة متوحشة ومفزعة، وظهرت علـى مسرح الأحداث في منطقة الدانوب بأعداد لا حصـر لهـا وشـجاعة منقطعة النظير من داخل آسيا، ومن المـرجح أن لفـظ الهـون هـو تحريف إغريقي لكلمة هونج-نو Hiung-Nu، وقد استخدم الصينيون قديمًا هذا اللفظ وهو يعني الرقيق الوضيع، ويبدو أن هذا اللفظ متداول إطلاقه على كل شعوب آسيا البدوية الـرُحَّل الذين لا يعرفون معنى الاستقرار(٢).

والهون شعب شديد المراس يقضي الرجال منهم حياتهم على ظهور الخيل، ولهم سحنة تثير الاشمئزاز، ويخفون تحت شكلهم الآدمي فظاعة الحيوان المتوحش، وتختلف ظروف حياتهم من فصل لآخر، ففي الشتاء تبلغ بهم المجاعة حدها بسبب الجفاف، وفي الصيف تكون الوفرة

---

(1) Lot, Les Invasions Germaniques, PP. 52-54.

(2) Bury, J. B; History of The Later Roman Empire from The Death of Theodosius to Justinian, New York, 1958, Vol. 1, P. 101.

في المؤن، وكانوا يتميزون بالسرعة الخارقة والمبالغة في أعدادهم، وذلك حتى يبثون الرعب في قلوب أعدائهم من الرومان.

وإلى الهون يرجع الفضل في اكتشاف حدوة الخيل وسروجها، وأن الحدوة قد سهلت على الخيل السير لمسافات بعيدة دون تعب، والسروج مكنت المحاربين الهون من خوض المعارك وهم على ظهور الخيل، ويصف مؤرخ روماني معاصر الهون بقوله : "إنهم شياطين لا تقهر، ووصل الأمر بالهون أنهم لا يترجلون عن خيولهم لتناول الطعام، بل يحتفظون بطعامهم المؤلف من اللحم تحت سروجهم حتى لا يضيعون وقتًا خلال الزحف على الأعداء" (١).

ويقول عنهم المؤرخ جوردن: "إنهم كانوا من ذرية الساحرات والأرواح النجسة، ولا عجب حينئذ أنهم كانوا قبيلة من الأقزام الأشرار المجردين من الإنسانية، وكانت لغتهم تختلف عن لغة القبائل المجاورة لهم، مع العلم أنه لم تكن لهم لغة خاصة بهم، وكانت أصواتهم شبيهة بأصوات البشر، وكان مظهرهم مخيفًا لدرجة أن الشعوب القوية المتاخمة لهم كانت تهرب في فزع تجنبًا للقائهم؛ لأن لونهم الداكن كان يبعث على الخوف والرعب منهم.

وقال أيضًا: إن الفرد منهم كان عبارة عن كتلة من اللحم لا شكل لها وليس لها رأس، وبدلا من العينين يوجد ثقبان صغيران.. ومع أنهم كانوا يعيشون كما يعيش البشر فإنهم كانوا مثل الوحوش في قسوتهم (٢).

---

(١) Spephenson, Media ev of Hist., P. 48; cantoy, med. Hist., pp. 117.118.

(٢) Jordanes, The origins and deeds of the Goths trans by mierow, c., press, 1908, pp. 39-40.

أما أمانيوس مارسيللينوس فلم تكن انطباعاته عن الهون مستمدة من العلاقات الشخصية، حيث ذكر أن موطن هذا العنصر المتـــوحش في شرق بحر آذوف -Azov-[١].

وكان الشيء الذي يفسر مظهرهم الجسماني البغيض هو وجود عاهات في وجهوهم، حيث أن الهون كانوا يكوون وجنتا كــل طفــل بالنار عند مولدهم، ونتيجة لذلك عندما يكبرون لا تنبت لهم لحـــى[٢]، ولم يكن لهم جمال الخصيان، ولهم سيقان قوية مكتنزة، ورقبة غليظة، أما الوجه فكان قبيحًا بصورة بشعة، فكان يطلق عليهم حيوانـــات ذات أرجل[٣].

وعن حياتهم الاجتماعية يؤكد أمانيوس أنه على الـــرغم مـــن بشاعة منظر الهون "فإن لهم التكوين الشكلي للبشر"، وكما ذكرنا مـــن قبل لم يستعمل الهون النار في طهو الطعام كالشعوب المتحضرة مثل الرومان، ولم يعيشوا في بيوت، فكانوا يمكثون أطول فترة فوق ظهور الخيل يتناولون أكلهم وشرابهم فوق ظهـــور الخيـــل، وتجنبـــوا بنـــاء المقابر؛ لأنه لم يكن لهم مكان ثابت أو مكان يمكن أن يعودوا إليه، ولم يعرفوا الزراعة كذلك، فلم يحدث أن حرث فـــرد واحـــد حقـــلا فـــي أراضيهم، أو استعمل محراث، لأنهم كانوا بدوًا رحلاً بدون محل إقامة ثابت، وعاشوا دون مأوى أو قانون أو أسلوب حياة متفق عليه، وكان المكان الذي يأويهم هي عرباتهم الذين اتخذوا منهـــا مســـكنًا ومكانـــا للمعيشة، وصنعوا ملابسهم من الكتان أو من جلود فئران الحقول، ولم

---

(1) Jordanes, Op. cit, p. 40.

(2) Vasiliev, A, op. Cit, p. 98.

(3) Ammianus, M, op. cit., vol. III, PP. 381-382.

يغيروا ملابسهم أبدًا، حيث يتركونها حتى تبلى وتتساقط قطعًا قطعًا[1]. ويقول القلقشندي: "إنهم كانوا لا يرون غسل ثيابهم ألبتة ولا يميزون بين طاهر ونجس"[2].

ولا ريب في وجود طبقات اجتماعية عند الهونِ شرق بحر قزوين وهو الأمر الذي ظهر بوضوح في وصف الكُتّاب الغربيين عندما تحدثوا عن أتيلا وشعبه في المجر.

فبعد الملك وممارسته لمركز السلطة العليا وجدت طبقة أرستقراطية قامت على المولد والخدمة العسكرية، وكوَّن قادة تلك الطبقة نوعًا من المجلس الذي قدم المشورة للملك، ووجد الملك حرسه الخاص من بينهم، ونعمت الطبقة الأرستقراطية بحق اختيار الغنائم والعبيد.

وفي عهد أتيلا، نعم أنجييوس -Onegsius- أحد أفراد الطبقة الأرستقراطية بمركز مشابه لرئيس الوزراء أو الوزير، وشغل مكانة الشرف في المناسبات الرسمية، وعاش في منزل يلي في الحجم منزل أتيلا[3].

ونظرًا لانخفاض المستوى الثقافي لشعب الهون لم توجد حدود فاصلة بين الطبقة الأرستقراطية وطبقة العامة من الرجال والنساء، وكان معظم شعب الهون ينتمي إلى الطبقة الأخيرة، وكانت الأغلبية العظمى من الهون أحرارًا، وكانت ثقافتهم البدوية الترحالية تقف عائقًا ضد امتلاك الرقيق على نطاق واسع، وكانت أدواتهم الاجتماعية ساذجة للغاية، وكانوا يفضلون الذهب على العبيد، إذ كانوا على

---

(1) Ammianus, M, op. cit., vol. III, PP. 383-384.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، جـ٤، صـ٣١٢.

(٣) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٢٩-٣٠.

استعداد لمقايضة العبد بالذهب، والعبد الوحيد الذي ذكره بريسكوس – Priscus معلم ومؤرخ القرن الخامس الميلادي، كان المهندس المعماري الروماني الذي كلفه أونيجييوس ببناء حمام حتى يستطيع أن يستمتع بمظاهر الرفاهية الرومانية، وكان هذا الروماني يأمل في الحصول على حريته مقابل براعته[١].

أما فيما يتعلق بالأسلحة عند الهون وطريقة استخدامها وطريقتهم في القتال فقد ذكر أمانيوس: "إنهم كانوا فرسانًا مهرة" لأنهم يقضون معظم الوقت على خيولهم، فكانوا خفيفي الحركة، حيث تتميز خيولهم بالسرعة الفائقة والمهارة العالية في الحرب، ويقسمون أنفسهم فجأة إلى جماعات متناثرة ويهاجمون ويندفعون هنا وهناك دون نظام محدثين مذبحة مروعة[٢]، وكانت أسلحتهم عبارة عن السهام والرماح والأقواس المصنوعة من الأغصان المجدولة والمغطاة بالجلد، ووصفهم كذلك بأنهم أشد المحاربين إثارة للرعب، فهم يحاربون من مسافات بعيدة مستخدمين القذائف التي في مقدمتها عَظْمة بدلا من طرفها المدبب، وتساعدهم خيولهم المدربة على السير لمسافات طويلة، ويقاتلون بالسيوف وجهًا لوجه ببراعة دون خشية العدو[٣].

وقد كانت شخصية زعيمهم أتيلا توصف بأنه وُلد ليهزم العالم، حيث كان مولعًا بالحرب والدمار في تركيبته الشخصية والنفسية، فقد كان متكبرًا، وقاسيا ومتهورًا – في حين أنه كان رحيمًا بالمتوسلين إليه ممّن هم في طاعته، كل ذلك ضاعف من شراسة الهون، وقللت من شهامتهم وأخلاقهم.

---

(١) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٣٠.

(2) Ammianas, M., Op. cit., Vol III, PP. 385-386.

(3) Ammianaus, M., Op. cit., Vol. III, P. 386-387.

ويذكر أمانيوس في هذا الصدد: "وإذا ما عقدوا هدنة كان لا يؤمن لهم جانب، وكانوا يميلون بشدة إلى انتهاز أي فرصة دون مراعاة لمشاعر الآخرين"(١).

وكانت عقيدتهم هي الوثنية، وقد صنعوا تماثيلهم من الذهب وبعضها من الأحجار الكريمة، ولقد كان معبودهم الشهير هو السيف المقدس وهو إله الحرب بالإضافة إلى آلهة أخرى على شكل حيوانات، ولم تكن لها مسميات محدودة(٢)، ويقال إنهم لم يعتنقوا دينًا أو يوقروا ديانة(٣).

وقد اعتقد الهون في الكهانة والعرافين بصورة كبيرة في كل أمور حياتهم، وعمومًا لقد اتسمت حياة الهون بالتخلف الفكري والثقافي، ولم تنعم طبقة العامة منهم بمباهج الحياة نظرًا لهذا النمط القاسي من العادات والنظم الاجتماعية(٤).

وعلق جوردن وأميانوس على أساليب حياة الهون الفاسدة، بيد أنهما لم يذكرا شيئًا عن المعتقدات الدينية والتقاليد، كما أن جهود علماء الآثار لم تقدم إلا القليل لتوضيح مشكلة دياناتهم.

لقد كان منهم عرافون، ورجال تنبئوا بالفأل الحسن والسيئ واستخدموا التعاويذ، وصنعوا الأوثان من الأحجار الكريمة، والحجارة والطباشير، وثمة دليل على أنهم قدموا القرابين من الحيوانات لآلهتهم، على أن العلماء توصلوا إلى تحديد إله كان يعبده الهون، وهو عبارة عن سيف مقدس كان يرمز إلى إله الحرب، ولكننا لا نعرف أسماء

---

(1) Ammianaus, M., Op. cit., Vol. III, P. 387.

(2) Rice, c., The Byzantium, P. 26.

(3) Ammianaus, M., Op. cit., Vol. III, P. 387.

(٤) جوزيف نسيم يوسف، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، الإسكندرية، ١٩٨٤، صـ٨٠.

آلهتهم التي كانت على شكل إنسان أو حيوان، كما لم يتجرأ عالم على القول بأن لهم كهنة[1].

ولسوء الحظ فإنه منذ أن دون المؤخرون الأوائل الأوصاف المزعجة عن سلوك الهون وتصرفاتهم في القرنين الرابع والخامس للميلاد، لم يظهر أي شيء مكتوب له أهمية تذكر يمكن أن يخفف من كآبة الصورة التي تركوها عنهم، وساعدت الاكتشافات الأثرية إلى حد ما على تقديم قدر ضئيل من الأدلة الواضحة، من نوع الحياة التي عاشها الهون عندما كانوا يعيشوا شرق بحر قزوين.

على أن أقوى العوامل التي حددت سمات الهون وطرق معيشتهم، كان بلا شك مناخ الأراضي التي عاشوا فيها؛ فنتيجة للأمطار القليلة التي كانت تسقط في أواسط آسيا، ونعني بذلك أراضي السهول الواسعة الخالية من الأشجار والممتدة شرق جبال الأورال إلى منغوليا، حيث وضع المؤرخون -في الماضي- شعوب تلك المنطقة في قائمة البدو الرحل، ولم يكن لهؤلاء القوم مواطن دائمة، كما أن بحثهم عن الطعام اللازم لهم ولسلالاتهم جعلهم في حالة تنقل مستمر من مكان إلى آخر، بيد أن اكتشاف هذه الأماكن المهمة نسبيًا في بلاد الهون دفع العلماء إلى تطوير وجهة نظرهم الأولى عن الهون، واعتبروهم شعبًا بدويًا.

ويبدو أن الهون شغلوا مساحات دائمة، علاوة على ذلك تحركوا في نطاق منطقة شاسعة؛ ففي الربيع كانوا يسوقون قطعانهم شمالا تجاه المراعي التي كانوا بها في العام السابق، وعندما يقترب الربيع يعودون ثانية إلى محل إقامتهم الشتوي الذي اعتادوه مما يعد سمة هامة للحياة البدوية الحقيقية[2].

---

(١) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٢٩.

(٢) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٢٦-٢٧.

وقد كان فصل الربيع عند الهون هو أفضل فصول السنة لوفرة الكلأ والنباتات الطبيعية فيخرجون لرعي أغنامهم، ثم سرعان ما يعودون إلى محل إقامتهم الشتوية دون ارتباط بمكان أو ولاء لأرض، لذلك كانوا دائمي الترحال بحثًا عن الكلأ والماء لرعاية خيولهم، ولا يتركون هذه الأراضي حتى تصبح صحراء جرداء، وقد مارسوا صنوفًا من التجارة مثل تجارة الخيول والعبيد، وكانوا يحصلون على الذهب مقابل هذه التجارة، وكان الهون يعشقون الذهب ولا يستفيدون منه إلا وقت الحرب[1].

ورغم أن اقتصاد الهون كان يعتمد على الاكتفاء الذاتي فإنهم مارسوا نوعًا من التجارة مع الشعوب على امتداد حدودهم، وكانت صادراتهم الأساسية هي الخيول والعبيد، إذ قاموا بتربية الخيول وأسر العبيد أثناء إغاراتهم في زمن الحرب، ولم يكن لديهم حاجة لاستخدام العبيد، أما الذهب الذي حصلوا عليه مقابل بضائعهم أو حصلوا عليه أثناء إغاراتهم، فكانوا يشترون به النبيذ والحرير، أو ربما اكتفوا بترك مدخراتهم من الذهب تتكدس كما فعل الأفارو المجريين[2].

ولم يدفع الهون ضرائب، إذ أن الاحتياجات البسيطة لحضارتهم البدوية لم تجعل هذا الأمر ضروريًا، كما أن افتقارهم إلى النظام الإداري جعل تحصيل الضرائب أمرًا مستحيلا، وكان على كل فرد من الهون أن يحمل الأسلحة التي أعدها لنفسه، وبعد انتهاء الحرب لم يكن هناك حاجة إلى الموارد المالية، ومع ذلك فبالرغم من أن الأساليب البدوية تركت للهون حرية شخصية أكثر مما يسمح بها أي مجتمع راسخ ووطيد، فإن تلك العادات البدوية نفسها تفسر فشل الهون

(1) Ammianus, M., Op. cit., Vol. III, P. 384.

(٢) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٢٧-٢٨.

في إقامة مجلس يضم الرجال الأحرار، ويضع السلطة المطلقة للقبيلة في أيدي الأغلبية كما كان الحال عند الجرمان(١).

ولقد استعمل الهون العجلات الحربية لحمل الأطفال والمسنين معهم وقت الحرب، وربما كان هذا قد أثر فيهم وجعلهم أكثر شراسة في القتال وأكثر إصرارًا على إحراز النصر خوفًا على أهلهم الذين تركوهم خلفهم(٢).

وفي رحلتهم البطيئة إلى المراعي الشمالية، وفي طريق عودتهم إلى مأواهم الشتوي نقل الهون الأطفال الصغار والمسنين العجزة في هذه العربات ذات الأربع عجلات، وعندما يتطلب الأمر سرعة أكثر، كما كان يحدث عند الإغارة، كانوا يستخدمون عربات ضخمة ذات عجلتين، وعندما يرغبون في استخدام أقصى سرعة كانوا يمتطون صهوة خيولهم حيث إن سرعة هذه الخيول تركت انطباعًا عند المراقب الغربي، هذا بالإضافة إلى قدرة تلك الحيوانات على التحمل والجلد بشكل يفوق العادة، ولاشك أن الأحوال في بلاد الهون جعلت خيولهم تتمرس على تحمل الظروف التي لا يمكن للخيول الغربية تحملها(٣).

وعن الخيول الغربية وخيول الهون ذكر -فيجيتيوس- vegetius الكاتب الروماني في القرن الرابع الميلادي شيئا من ذلك، فقد لاحظ: "أن الحصان الروماني أقوى من نظيره الهوني، وكذلك أفضل منه في الذكاء والهيئة، ولكن الحصان الهوني يتميز عن الروماني في أنه أكثر صبرًا على تحمل المشقة، وكذلك بعد المسافة والسير لفترات طويلة دون عناء.

---

(١) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٣٠.

(2) Ammianus, M., Op. cit., Vol. III, P. 386-387.

(٣) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٢٨.

ويذكر أيضا أن خيول الهون بشعة المنظر، ولها رؤوس كبيرة وأعين بارزة، وظهورها عريضة يمكن للفارس الهوني النـوم فـوق ظهورها. وتتدلى شعور أعناقهم حتى الرجلين الأماميتين، وضـلوع قفصها الصدري واسعة، وحوافرها مفرطحة، وكانوا يستخدمون نوعًا من السروج تساعدهم في البقاء على الحصان مدة طويلة[١].

وبناء على ما سبق ذكره، فيبدو أن ما ذكـره أمـانيوس عـن براعة الهون العسكرية الفائقة كان صحيحًا، فقـد تفوقـوا كفرسـان وكرماه بالسهام، وتعلموا تلك المهارات ومارسوها منذ الصبا.

فبالإضافة إلى القوس والسهم حمل المحارب من الهون سـيفًا ورمحًا، وربما أنشوطة -Lasso- وهو سلاح كان شائعًا بين شعوب السهول الواسعة الخالية من الأشجار -Steppe- وكان هـذا السـلاح منفصلا عن الآلات.

واعتمد الهون على قطع من الجلد محشوة بالصـوف كغطـاء للحماية هذا في حالة إذا لم يتمكنوا من الاستيلاء على حديد أو شرائه من الشعوب المجاورة لهم، والأكثر منهم تحضرًا، وكان الفرد مـنهم يحمل ترسًا مصنوعًا من الأغصان الصغيرة المجدولـة، أو المغطـاة بالجلد.

وترجع الكثير من المميزات التي تفوق بها الهون على أعدائهم الذين دخلوا معهم في القتال إلى سرعة خيولهم وقدرتها على التحمل، فكانت المسافات الطويلة بسيطة بالنسبة لهم، وكانوا في العادة يصلون أسرع مما يتوقع أعداؤهم الذين كانوا يصابون بالرعب، وعند اقترابهم من عدوهم كانوا يحدثون ضجة مخيفة، ثم يطلقون وابلا كثيفًا مـن السهام، وبعد ذلك ينقضون على العدو في معركة وجهًا لوجه.

---

(1) Otto, J., The World of The Huns, P. 204.

- جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٢٨.

ولقد برع الهون شأنهم شأن المحاربين في المناطق السهلة الواسعة الخالية من الأشجار في العالم في المناورة بالانسحاب السريع، ولم يستعملوا مهمازًا أو ركابًا بالصورة التي نعرفها، ولكنهم استخدموا نوعًا من السروج الخشبية الذي كان يساعدهم على البقاء على خيولهم في أمان(١).

ومنذ فجر التاريخ اعتمدت حياة البدو وأشباه البدو على تربية الحيوانات، ولا يمكن استثناء الهون من ذلك، فقد اقتنى الهون قطعانًا كبيرة من الخيول والأغنام بالإضافة إلى الماشية، وأمدتهم الخيول بوسيلة الانتقال واستخدموها في زمن الحرب، كما كانت موردًا هامًّا للحوم والألبان، وكان يسلقون قطعًا غليظة وقصيرة من لحوم الخيول في مراجل ضخمة، وأمدتهم الأغنام بالطعام والملبس واللبن واللحم والجلود والمنسوجات الصوفية أو اللباد لخيامهم والجلود لصناعة أحذيتهم، وأحيانًا كانوا يمارسون الألعاب الرياضية وصيد الأسماك، وقد أفلحوا في زراعة الدخن، برغم قلة الأمطار(٢).

وكان الهون -كبدو- لا يمارسون الزراعة، إذ أن طعامهم الأساسي هو لبن الأفراس والأغنام بعد تجهيزه بطرق شتى، وكانت شهوته للطعام هائلة، ولكنه في بعض الأحوال يستطيع تحمل العطش أيامًا والجوع أسابيع، وهذا أمر يتمشى مع ظروف حياتهم، إذ أن أراضي الرعي والآبار لا تكفل العيش لما يزيد على ذلك.

والواقع أن الرومان كانوا ينظرون إلى الهون نظرة الرعب المشوب بالخرافات ويحسون نحوهم بنفور وتقزز؛ ونظرًا لما اشتهر

---

(١) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٢٨-٢٩.

- Stephenson, Media vol Hist, P. 48.

(٢) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٢٧.

- Stephenson, Media vol Hist, PP. 48-49.

به الهون من السرعة الخارقة، نسبت إليهم قدرات سحرية خارقة، وبُولِغ في عدد أفرادهم مبالغة عظيمة.

والواقع أن الجزء الأعظم من مقاتلي الهون كانوا يتألفون من أفراد القبائل المهزومة التي ساقوهم مع زحفهم نحو أواسط أوربا مثل الجيبيد والألان والقوط والصقالبة وغيرهم[١].

وقد بدأت قبائل الهون المتبربرة الظهور على مسرح الأحداث السياسية أواخر القرن الرابع الميلادي، ويذكر أمانيوس أن الهون بعد هزيمتهم على حدود الصين وانسحابهم غربًا هددوا كل الشعوب التي صادفتهم على حدود الإمبراطورية الرومانية، ويذكر أيضًا أن الهون من جنس مغولي بدائي، استقروا في منطقة الاستبس الواسعة التي تقع إلى الشمال والشرق من بحر الخذر Caspiansea- واخترقوا أوربا عام ٣٧٠م[٢]، وظهر الهون حوالي عام ٣٨٥م في السهول الواقعة شمال البحر الأسود، وهناك دخلوا في معارك ضد الألان والشعوب الآسيوية الأخرى الذي أخضعوهم لسيطرتهم بعد سنوات عديدة من الإغارات المتبادلة.

وقد نجح بعض الألان فيّ أن يشقوا طريقهم غربًا، حيث شاركوا الجرمان في اجتياح بلاد الغال وخضع الألان للهون[٣]، ودخلوا أوربا دون أدنى مقاومة، وفاق الهون الجميع في أعمالهم الوحشية وربوا أطفالهم على ذلك السلوك الوحشي، حيث شقوا وجههم بقطعة من حديد تجعلهم شديدي القبح، وكان أول من دخل في طاعتهم الألان[٤].

---

(١) موسى: المرجع السابق، صـ٩٤-٩٥.

(2) Ammianus, Op. Vol. III, PP. 361-365; Vasiliev, P. 98.

(٣) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٣١.

(4) Ammianus, Op. Vol. III, PP. 375-385.

وفي منتصف القرن الخامس الميلادي، عندما استعد أتيلا للاتجاه بجيشه غربًا إلى بلاد الغال، اعتقد أمانيوس ومعاصروه أن ما يدور بخلد الهون مجرد شن غارة من غارات البدو الرحل مادام أن الطعام أكثر وفرة شمال البحر الأسود عنه في أي مكان في الأراضي المنبسطة شرق بحر قزوين، ورغم أن الأغلبية استخدمت العربات الكبيرة أو الخيام، فإن الشخصيات الطموحة الثرية عاشت في ديار مصنوعة من الخشب وظلت تربية الحيوانات هي المصدر الرئيسي للطعام، فقاموا بزراعة الدخن، وشربوا نوعين من الشراب يشبهان الجعة والميد -Mead– عند الجرمان، واستهلكوا أيضًا كميات كبيرة من النبيذ، وكان البائعون الجائلون يقومون بتهريبها من جنوب نهر الدانوب، ولم يشجع قادة الهون التجارة مع الرومان، وقيدوها بالسوق السنوي الذي كان يُعقد على نهر الدانوب، والذي كان يعقد بعد عام ٤٤٧م في مدينة نيسس -Naissus (Nis)– على أن السلع التي احتاجها الرومان بشدة من الهون كانت العبيد والخيول(١).

وكان أول من اصطدم الهون بهم هم القوط الشرقيون – Ostrogthic، فعندما تحركوا من موطنهم الأصلي في الصين، أُجبر الهون على التحرك صوب الغرب، وحاولوا غزو الهند، ولكنهم طردوا منها فتحركوا بسرعة عظيمة تجاه الغرب، فمروا شمالي بحر قزوين والبحر الأسود، ثم مروا خلال منطقة جنوب روسيا نحو البلقان، واخترقوا حوض نهر الدانوب حيث القوط الشرقيون(٢)، وأصبح مصير القوط الشرقيين على وشك أن يتقرر بعد ظهور الهون، ونجح القوط في البداية في حماية أنفسهم من خطر الهون بالقوة وبحد

---

(١) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٢٩.

(٢) نورمان. ف كانتور: التاريخ الوسيط، جـ١، صـ١٨٥.

- Lot, les invasions Germanique, PP. 52-54.

السيف، ولكن قوتهم انهارت أمام قوة الهون، وقد انتحر إرمانريش – Ermanarich ملك القوط الشرقية؛ حتى لا يعيش ويرى سقوط مملكته على يد الهون، وتولى خلفًا له القائد القوطي وزيمير withimir فسقط هو الآخر قتيلا في ميدان المعركة.

وبعد هزائم متتالية في ميدان المعركة استسلم القوط الشرقيين للهون[1]، وحاول اثنين من قادة القوط الشرقيين اللذان كانا يعملان تحت قيادة القائد السابق وزيمير وهما: ألاثيوس -Alatheus– وسفراكسي Saphrax– باسم الوصاية على فيديريش Viderich– ابن وزيمير المقاومة والوقوف في وجه الهون، ولكنهما فشلا في مهمتهما، واضطرًا في النهاية التخلي عن فيديريش، وقضى الهون على القوط الشرقيين الذين ارتدوا حتى نهر الدينستر، وعبثًا حاول القوط الدفاع عن خط الدينستر ضد الطوفان الهوني، ولكن الهون كانوا أشد بأسًا من القوط، فاكتسحوا مملكتهم وأجبروهم على أن يصبحوا عبيدًا لهم إلا فئة قليلة، واتخذت طريقها بالقوة ناحية القوط الغربيين، حيث وصلوا إلى حدود دالماشيا على مقربة من نهر الدانوب[2].

وتقدم الهون غربًا لمحاصرة القوط الغربيين وذلك عام ٣٧٥م، وعند سماع القوط بأنباء الحرب، دعا القائد القوطي أثاناريش – Athanrich- شعبة لحمل السلاح ومواجهة القوط، وزحف على رأس قوة من جيشه لملاقاة الهون[3]. وعندما وجد القائد القوطي أثاناريش أنه وقع فريسة للخيانة، وأن العدو أحاط به من كل جانب، فكر على الفور في ترك موقعه، وتخلى عن المقاومة في ميدان المعركة، وتوجه

---

(1) Ammianus, M., Op. cit., Vol. III, B.XXX1, P. 397.

(2) Ammianus, M., Op. cit., Vol. III, PP. 397.

(3) Ammianus, M., Op. cit., Vol. III, PP. 397-398.

إلى الوديان التي يصعب اختراقها في مرتفعات ترانسلفانيا – Transylvania- وقد تبعه نفر قليل، أما الأغلبية العظمى من شعبه فقد انقسمت إلى مجموعات صغيرة، وقررت تلك الفرق الحربية بأمر رؤسائها الهجرة من البلاد، وقد جمع ألافيو -Alvio– وفريتجرن – Fritigern قائدا القوط الغربيين قواتهما على الشاطئ الشمالي للدانوب، والتمسا من الإمبراطور فالنز السماح لهما بالدخول إلى أراضي الإمبراطورية الرومانية خوفًا من الهون[١].

وقد ارتبطت شهرة الهون باسم زعيمهم أتيلا الذي كان رمزًا للحرب والدمار[٢]، وكان أتيلا أشهر القادة البرابرة الذين أنزلوا الخراب والدمار بالإمبراطورية الرومانية إبان فترة تدهورها، وقد فعل ذلك ملوك برابرة آخرون، على أن كلمة برابرة كانت تستعمل على نطاق واسع بمعنى يغاير معنى الرومانيين أو شبه المتحضرين، وكان الأريك ملك القوط الغربيين أول رؤساء القبائل الجرمانية العديدة الذي اجتاح مدينة روما عام ٤١٠م، وبعد ذلك بخمس وأربعين عامًا قام الملك الوندالي جذريك بنهب المدينة الخالدة مرة ثانية، وجاء أدواكر بعد أتيلا الذي يحتمل أن يكون جرمانيًا سكيريانيًا -Scirian– وكان أقل رعبًا كقائد حربي من البرابرة، وعلى الرغم من أنه حظي بشهرة راسخة إلا أنه الرجل الذي عزل الإمبراطور –رومولوس أغسطولوس Romulus Augustulus– آخر "الأباطرة الرومان في الغرب".

وبعد أدواكر جاء ثيودوريك الذي جعل إيطاليا قاعد لمملكة القوط الشرقيين القوية الشكيمة التي اقتطعها من الإمبراطورية التي كانت تحتضر. هؤلاء وملوك آخرون من البرابرة حظوا بشهرة في

---

(1) Ammianus, M., Op. cit., Vol. III, P. 399.

(2) Jordanes, Op. cit., PP. 39-40.

فترة تدهور الإمبراطورية الرومانية أكثر من أتيلا الذي ينتمي إلى قبائل الهون، وبالرغم من ذلك استمرت شهرة أتيلا على أنه أشد الأعداء تخريبًا وإثارة للفزع، حيث تعرضت لأفعاله الإمبراطورية الرومانية المنهارة(١).

وكانت شهرة أتيلا قد طبقت الآفاق بما عرف عنه من وحشية وقسوة، حتى أن معاصروه اعتقدوا أنه لا يقهر، وأطلقوا عليه لقب "سوط الله" -The Gourge of God- "أي العقاب الذي سلطه الله على الخطاه"(٢). وكان الشيء الذي أعطى أتيلا هذه السمعة المخيفة هو ميل الكتاب في العصور الوسطى إلى الإشارة إلى أعماله التي أثارت الرعب، وأطلقوا عليه (سوط الله) إذ رأوا أن الله غضب على البشر فسلطه عليهم لانغماس الإنسان في الرزيلة، ولئن كانت بعض الكوارث من عمل الطبيعة فإنها لم تكن لتثير من الخراب والدمار ما أحدثه أتيلا والهون.

والحقيقة أن أتيلا لم يحتل مدينة روما قط، غير أن قدومه كان كفيلا بإثارة ذعر الرومان، إذ خطر ببالهم على نحو أشد من تفكيرهم في الأريك، على سبيل المثال الذي نهب روما فعلا، فقبل كل شيء لم يكن أتيلا مسيحيًا، كما كان الأريك الأريوسي المذهب الذي كان مسيحيًا لا يؤمن بمذهب الكنيسة الكاثوليكية، بيد أن الطوائف المسيحية التي لا تدين بمذهب الدولة كان ينظر إليها على أنها أفضل بكثير من الوثنيين من أمثال أتيلا، كما أن الروايات التي قدمها المعاصرون عن الهون جعلت الشعب المتحضر يرتعش خوفًا، حتى أن أتيلا وجيشه دفعوا شعوبًا مختلفة وكثيرة إلى نبذ عداواتهم المتبادلة وحملوا السلاح

---

(١) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٢٤.

(2) Hoyt, r.s & chodorow, s.; Europe in The Middle Ages (U.S.A), 1975, P. 67.

في موقعه شالون؛ ففي هذه الموقعة كانت كل شعوب نهر الفولجا إلى المحيط الأطلسي إما متحالفة مع ملك الهون العنيد أو ضده(١).

** ** * **

(١) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٢٤-٢٥.

الفصل الثاني

أحداث معركة شالون

في السنوات الأخيرة من القرن الرابع الميلادي ظهرت مملكة الهون شيئًا فشيئًا من بين القبائل المنتشرة والمستقلة إلى حد كبير، وظهرت لأول مرة شمال البحر الأسود.

وهناك في هذا الإقليم الخصب كان من السهل على رؤساء القبائل الأقوى والأكثر طموحًا أن يمارسوا قدرًا من السلطة، ولاشك أن نموذج القبائل الجرمانية المجاورة الذين قبلوا قيادة شيخ القبيلة أو الملك أثر على قبول الهون التدريجي للنظام نفسه(١).

ومع أواخر القرن الرابع ظهر أول ملك للهون ورد ذكره عند الكتاب الرومان وهو الملك أولدين -Uldin- وحرص الملك الهوني على إقامة علاقات ودية مع الإمبراطورية الرومانية، وأحيانًا كان يتحول إلى الهجوم على حدودها، ولكنه لم يستمر في سياسته العدائية تجاه روما؛ لأن سلطته على هذه القبائل كانت اسمية ولم تكن فعلية، فكثيرًا ما شقوا عليه عصا الطاعة وقبلوا الأموال من روما، وعملوا لخدمة الإمبراطورية ضد زعيمهم أو لدين، لذلك أصبح محالفًا لروما يمدها بالجنود والفرسان في حروبها في الداخل والخارج.

وفي عام ٤٠٨م انتهز أولدين فرصة الموقف الحرج الذي واجه القائد الروماني ستليكو والإمبراطورية من قبل الأريك، وقاد أولدين الهون وعبر نهر الدانوب إلى إقليم تراقيا، بيد أنه عاد مسرعًا إلى

---

(١) جوزيف داهموس؛ المرجع السابق، صـ٣٣-٣٤.

المجر طلبًا للنجاة عندما علم أن العديد من رؤساء قبائل الهون قد قبلت الأموال الإمبراطورية كما هي عادتهم، ورفضوا تقديم الهون لأولدين(١).

وهناك القليل من الروايات القوية عن الهون إبان العشرينات والثلاثينيات من القرن الخامس، فقبل هذا التاريخ بوقت طويل استطاع الألان التخلص من سيطرة الهون والقيام بعمل منفرد، حيث عبروا نهر الراين إلى بلاد الغال، هذا في الوقت الذي تضاءلت فيه إغارات الهون في تلك الفترة، ويوحي كل ذلك بعدم وجود قيادة قوية، وليس معنى هذا أن السلطة المركزية للهون قد انتهت بدليل أن إيتيوس قائد القوات الرومانية في الغرب عام ٤٢٥م، استطاع تجنيد عدة آلاف من الفرسان الهون للعمل تحت قيادته(٢).

وقد خلف أولدين ملك جديد للهون يدعى روجا -Ruga- وإن كانت الفترة التي تولى فيها يكتنفها الكثير من الغموض، فليس هناك ما يوضح ما إذا كان خليفة للملك أولدين، أو أحد رؤساء القبائل، وحرص روجا على إقامة علاقات مع الدولة الرومانية على اعتبار أنهما إمبراطوريتين منفصلتين شرقية وغربية، وبدأ في تقييم سياسته معها بما يضمن مصالح الهون، وكانت سياسته متزنة ومعقولة، حيث أنها حدت من تسلط الرومان على الهون، ومكنت الهون من الحصول على بعض الحقوق والمكاسب كلما سنحت الفرصة لذلك.

---

(1) Jordonses, Op. cit., P. 57.

- جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق، صـ٨١، جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٣٤، سعيد محمد عمران: معالم تاريخ أوربا العصور الوسطى، صـ٨٤.

(٢) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٣٤.

- Dillos, Romansociety, Op. cit., P. 290. Com. Med. Hist, Vol. 1, P. 215; Jordanes, Op. cit., p. 57.

أما علاقته بالإمبراطورية في الشرق فقد كانت أقل تعاونًا، وذلك عندما طلب منه الإمبراطور الشرقي في القسطنطينية المساعدة، امتنع عن تقديم الفرسان الهون، وحرم على رؤساء قبائله تقديم أي عون لهم، وقد طلب إعانة سنوية قدرها ثلاثمائة وخمسون رطلا من الذهب من الإمبراطور ثيودسيوس الثاني.

وعندما التحقت جماعة من الهون بإمبراطور الشرق متحديه أوامر روجا، شرع في مهاجمة القسطنطينية غير أن المنية وافته ٤٣٤م قبل أن يأمر جيشه بالسير، وإن كان الحال مختلفاً في الغرب حيث قدم روجا العديد من المساعدات للقائد إيتيوس فأمده بالعديد من الفرسان، عندما كان يدير العمليات العسكرية في الغرب(١).

وأحدث موت روجا موجة عامة من الفرح وتعشمت العاصمة خيرًا إذ أن روجا لم يترك ابنًا قادرًا على خلافته، واعتقدوا أن قوة الهون ستحتدم، وسيكون هناك عودة إلى حد كبير إلى السياسة الإيجابية التي انتهجها الهون قبل اعتلاء روجا العرش.

وبعد موت روجا تولى الحكم بليدا -Bledo- وأتيلا وهما ابنا مونديك -Mundiuch- شقيق روجا، غير أن توقعات القسطنطينية تمخضت عن خيبة أمل شديدة؛ لأن بليدا وأتيلا، توليا السلطة كملكين مشتركين دون أية صعوبة تذكر، ووافقت القسطنطينية على الحاكمين الجديدين، ووافقت على عقد معاهدة جديدة معهما دون تردد، ودون إجراء مفاوضات مطولة، وضمنت هذه المعاهدة استعادة كل الذين هربوا إلى بلاد الهون مقابل فدية قدرها ثمانية صوليديات -Solidi- عن كل شخص، وتعهدت القسطنطينية بألا تعقد أية معاهدة مع أي شعب من الشعوب المتبربرة تكون في حالة حرب مع قبائل الهون،

---

(1) Jordans, Op. cit., P. 57; Com. Med. Hist, Vol. 1, P. 215.

كما تعهدت الإمبراطورية مع الهون أيضًا على إقامة أسواق موسمية على نهر الدانوب(١).

وأخيرًا زادت الإعانة السنوية التي كانت تقدمها القسطنطينية إلى الهون من ثلاثمائة وخمسين رطلا من الذهب إلى سبعمائة رطل، وأصبح واضحًا أن الحاكمين الجديدين اهتما بإدارة أمور الدولة بقبضة من حديد، وذلك عند عودة اثنين من أحد رؤساء القبائل كانا يعملان في خدمة القسطنطينية، إذا تعرض كل منهما لعقوبة الإعدام وتم تنفيذ الأمر على الفور.

واستمر الأخوان بليدا وأتيلا يشتركان في مسئولية الحكم لمدة زادت على عقد من الزمان، وكان بليدا هو الأكبر سنًا، ويبدو أنه حقق لنفسه مركز الصدارة على أخيه؛ على الرغم من أن قوة شخصية أتيلا حققت له عنصر التفوق حتى قبل عام ٤٤٥م عندما قام أتيلا باغتيال أخيه(٢).

وتولى أتيلا الحكم منفردًا وأطلق على نفسه "سوط الله" – الخنجر المغروس في الأرض– وهو سلاح الهون المميز، وفرض نفوذه وسطوته على القبائل الجرمانية التي قادها حظها العاثر للوقوف في وجهه، وتسابق الحكام البرابرة على إرضائه وتقديم الهدايا خوفًا من جبروته وسطوته، وهدد شطري الإمبراطورية في الغرب والشرق(٣).

إن أتيلا الرجل الذي حكم هذه الإمبراطورية الضخمة، والذي تاقت نفسه إلى احتلال كل أوربا احتل مكانًا جنبًا إلى جنب مع جنكيزخان وتيمورلنك كأحد الثلاثة الغزاة الذين أثاروا الفزع، أو الذين

---

(1) Jordans, Op. cit., P. 57.

(٢) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٣٥.

(3) Jones, The Decline of Ancient World, P. 80.

أنجبتهم شعوب آسيا، ولم تبق سوى صور وصفية موجزة لأتيلا، فلم يكتب برسكوس Priscus– المؤرخ المعاصر سوى القليل عنه على النقيض من كتابات المؤرخ جوردن[١]، وقد كتب جوردن عن القوط واختص ملك الهون أتيلا بقوله: "ولد أتيلا ليهز أركان الأمم، وهو سوط الله سلطه على كل البلاد، وهو لا يقهر، وكان مولعًا بالحرب، استطاع بهذه الصفات أن يرعب كل الجنس البشري في الشرق والغرب بفضل الإشاعات وسمعته التي تسبقه في كل مكان، وكان متكبرًا في مشيته، لدرجة أن قوة الاعتداد بنفسه تجلت في حركاته، وبالرغم من هذه الصفات كان لديه القدرة على كبح جماح نفسه أثناء العمل، وربما في تقبل النصيحة، وكان رءوفًا بالمتوسلين إليه، وكان لين الجانب مع الذين ارتضوا حمايته لهم[٢].

لا تختلف الصورة التي قدمها المؤرخ جوردن للملك أتيلا عن الصورة التي قدمها المؤرخ بريسكوس الذي شاهد أتيلا عام ٤٤٨م عندما ذهب مع وفد من القسطنطينية إلى ملك الهون، وقال بريسكوس إن أتيلا كان له قدرة خارقة على شعبه يأتمرون بأمره وينفذون أوامره خوفًا من بطشه.

وكتب كذلك عن كيفية محافظة أتيلا على عزلته مع الآخرين حتى أقرب الناس إليه وهم أفراد أسرته، وكذلك أكثر المستشارين تقريبًا إليه، منعهم من الاختلاط به والاقتراب منه، وكان يلتزم بمراعاة مظاهر التشريفات الملكية لإضافة الأبهة والعظمة الملكية الشخصية. وذكر كذلك عاداته في تناول الطعام التي كانت تميزه عن غيره من الطبقة الأرستقراطية التي كانت تتناول الطعام في أواني

---

(١) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٣٦.

(2) Jordanes, The Goths, P. 57; Vasiliev, A; Op. cit., P. 98.

ذهبية، في حين نرى أن الملك أتيلا يتناول طعامه في أطباق خشبية، حتى ملابسه كانت تميزه عمن حوله، فقد كانت بسيطة، ولم يهتم بنظافتها، وكان يتميز بالذهب والجواهر والأشياء الثمينة مثل الرومان[١].

ويذكر -بريسكوس- كذلك أن تصرفات الملك أتيلا كانت مخالفة لرؤساء قبائله، حيث كانوا يجتمعون للاحتفال بالنصر بإعداد الولائم، وشارك بريسكوس نفسه في إحدى هذه الولائم ومعه أعضاء من الوفد الروماني، وعندما دخل أحد المهرجين - كما هي عادة الرومان - أدخل السرور على قلب كل فرد بمظهره وبملابسه وبصوته الغريب، ولم يستطيع أحد أن يمنع انطلاق الضحكات باستثناء أتيلا، ولم تتغير ملامح وجهه لهذه الضحكات، ولم يبدر منه أي شيء يدل على السعادة؛ لأنه كان شخصية كئيبة لا تحبذ المرح والضحك[٢].

ولم يبد أتيلا دليلا مقنعًا على دهائه في أي مكان أكثر مما قدمه في تعامله مع الشعوب الخاضعة له، إذ نجح في أن يكفل لنفسه احترامهم وتعاونهم بمعاملته لقادتهم باحترام، وبزيارتهم بنفسه طلبًا للمشورة.

وكان أردريك -Ardaric- ملك الجيبيد والمير -Walamer- أحد ملوك القوط الشرقيين من بين أكثر المستشارين الذين كان يثق بهم، وكان رعاياه من الألمان ملزمين بالمشاركة بالرجال المسلحين في حالة التهديد بالخطر فحسب، ومع ذلك لم يتمتع الرعايا الآخرون مثل السلاف بنفس قدر الامتيازات، إذ كان من الممكن معاملتهم باحترام أقل دون خطر، كما كان من واجبهم دفع نسبة من إنتاج مزارعهم وماشيتهم وقطعانهم.

---

(1) Gordon, C.D; The Age of Attila, Press, 1960, P. 95.

(2) Gordon, C.D, The Age of Attila, P. 96.

وكان هناك دليل آخر على ذكاء أتيلا -مالم يكن قصة مخترعة- وهي رفضه تغيير عادات شعبه خشية أن يؤدي ذلك إلى ذوبان شخصية شعبه في الشعوب الأكثر عددًا من حوله كالجرمان والسلاف.

وعلى عكس ثيودريك ملك القوط الشرقيين الذي نظر نظرة احترام للثقافة الرومانية، على عكس أتيلا الذي لم يبدي سوى احتقاره للحضارة الرومانية، وكان الشيء الذي أعجبه في الإمبراطوريات جنوب الدانوب والراين هو ثراؤها وما طلبه منها هو الذهب[1].

وفي علاقاته مع الإمبراطوريتين الشرقية والغربية استمر أتيلا في انتهاج سياسة أسلافه، إذ تعامل مع كل منهما كدولة منفصلة عن الأخرى، ونجح في منعهما من التعاون سويًا ضده، واستطاع بذلك فقط أن يفرض على كل منهما تقديم التنازلات، والحصول على الذهب منهما، ولكي يحد من حركة الإمبراطورية الشرقية فإنه ضاعف من طلبه للذهب وطارد أباطرتها بالسفارات المستمرة من أجل الحصول على الذهب.

ومنذ عام ٤٤٩م دفع الإمبراطور الذهب ليس كإعانة سنوية رسمية، وإنما على شكل راتب لأتيلا باعتباره قائدًا من قواد الجيش، وهو منصب شرفي، ولم يغب ذلك عن بال المعاصرين، واعتبر بريسكوس ذلك مجرد ستار لإخفاء دفع الإعانة السنوية، ومع ذلك فإنه كان أقوى سلاح فعال استغله أتيلا في تعامله مع الإمبراطورية الغربية وهي سياسة أتت أكلها، إذ كانت الإمبراطورية في حاجة إليه لإمدادها بالقوات المساعدة للمحافظة على بقائها[2].

---

(١) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٣٧.

- Com. Med. Hist, Vol. 1, PP. 280-281.

(٢) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٣٧-٣٨. =

وفي الوقت نفسه ما إن فرضت المعاهدة الجديدة على القسطنطينية حتى كرس أتيلا جهوده لفرض سيطرته على القبائل المختلفة، بالإضافة إلى الشعوب الجرمانية التي دانت بالاعتراف بالحكم الهوني، وكان شعبا الجيبيد والقوط الشرقيين من أهم الشعوب التي اعترفت بالحكم الهوني، وكذلك قبائل الروجيان Rugians والهيرول والسكريان والتركيلنجي -Turciling- والسويفي وآخرون. على أن اللومبارديين كانوا القبيلة الوحيدة الكبرى في شمال الدانوب التي نجحت في الاحتفاظ باستقلالها على الرغم من أن أتيلا نفسه لم يكن يعرف حدود إمبراطوريته على وجه الدقة، فإن المؤرخين يعتقدون أنه مارس سلطة فعالة على الشعوب في النمسا والمجر ورومانيا وجنوب روسيا، وجزء من بانونيا Panonia جنوب نهر الدانوب وأنهار ثيسس -Theiss- ونظرًا لأن المباني كانت مشيدة من الخشب فقد فشل علماء الآثار في الكشف عن أية آثار لعاصمته[١].

وكان أتيلا دائم شن الغارات على مناطق شاسعة وخاصة التي تشكل اليوم هنغاريا واليونان وأسبانيا وإيطاليا، وقد جمع من هذه الغزوات ثروة عظيمة وجمع جيشًا جرارًا؛ لأنه لم يكن أمام الأسرى إلا خياران: إما الموت أو مباعيته.

ونظم أتيلا جيشه على أساس عشري، حيث يجب على كل قبيلة أن تقدم له جيشًا من عشرة آلاف مقاتل ويسمى (تومين)، منظمًا على أساس أن كل عشرة فرسان يشكلون وحدة صغيرة، وكل عشر وحدات

= - Ostrogorsk, Op. cit., P. 53; Burg, Op. cit, PP. 291-294. Otto, Op. cit, P. 204.

(١) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٣٥-٣٦.

تشكل سرية من ألف فارس، وكل عشر سرايا تشكل جحفلا من عشرة آلاف فارس، وكل عشرة جحافل تشكل جيشًا أو (تومينًا) [١].

وللحقيقة فإن وجود أتيلا في هنغايا مكنه من تكوين جيش ضخم، وكذلك تهديد الإمبراطورية في الشرق والغرب؛ ففي عهد الإمبراطور ثيودسيوس (٤٠٨-٤٥٠م) إمبراطور القسم الغربي، حدث ما أدى إلى تعكير صفو العلاقات الرومانية الهونية، حيث ذكر بعض المؤرخين وعلى رأسهم -هويت Hoyt- أن أتيلا طلب من الإمبراطور ثيودسيوس رفع قيمة الجزية التي تؤديها الإمبراطورية الرومانية للهون، ولكن الإمبراطور رفض في كبرياء، وراح ينسج خيوط مؤامرة في بلاط القسطنطينية للتخلص من أتيلا باغتياله، ولكنه كشف النقاب عنها في اللحظات الأخيرة، وسخر أتيلا من ثيودسيوس قائلا: "إن العبد ثيودسيوس الذي دأب على دفع الجزية سولت له نفسه بأن يتآمر على قتل سيده"[٢].

ولم يكن أتيلا قانعًا بما تحت يده من أراضي واسعة وإمبراطورية شاسعة، فقد تطلع إلى توسيع أملاكه على حساب الإمبراطورية الرومانية بعدما استقرت له الأمور، وفرض سيادته على العديد من القبائل الجرمانية ففي بداية الأمر وقع بصره على الإمبراطورية في الشرق، فعبر الدانوب عام ٤٤١م واجتاح جزيرة البلقان، ووصلت جيوشه إلى أبواب القسطنطينية، وازداد موقف الإمبراطور مرقيان حرجًا لاسيما عند رفض الإذعان لأتيلا ودفع الجزية، كما فعل إمبراطور الغرب فالنتيان الثالث[٣].

---

(١) مايكل لي لاننغ: المعارك المائة، ترجمة صادق عيد علي الركابي، مكتبة مدبولي، ط١، ٢٠٠٧م، صـ٢٢١-٢٢٢.

(2) Hoyt & chodorow, Op. cit., P. 67.

(3) Hoyt & Chodorow, Op. cit., PP. 67-77.

وكانت العلاقة الفعلية المباشرة للهون مع الإمبراطورية الرومانية، عندما استخدمهم الأباطرة في حروبهم وصراعاتهم مثلما فعل الإمبراطور ثيودسيوس الأول في صراعه مع ماكسيموس المدعي بأحقيته في العرش، وكذلك دخولهم بأعداد كبيرة في عهد روفينوس الوصي على الإمبراطور أركاديوس وسمح لهم بالتنقل بأسرهم على أراضي الإمبراطورية، حتى أصبحوا مصدر قلق بالنسبة للإمبراطورية الرومانية(١).

وكان القائد إيتيوس القائد الفعلي للجند هو الرجل الذي انتهج سياسة الاعتماد بصفة أساسية على الهون لمساعدته في حماية حدود الإمبراطورية في الغرب، وفي عام ٤٢٥ استخدم جشا من الهون للمساعدة في المحافظة على عرش الإمبراطور فالنتيان الثالث بعد وفاة الإمبراطور هونوريوس.

وفي عام ٤٣٣م استطاع بمساعدة الأصدقاء الهون إجبار فالنتيان ووالدته بلاسيديا الوصية على العرش أن يعترفا به كقائد على الجند، ومنذ تلك السنة وحتى وفاته كان إيتيوس الحاكم الفعلي للإمبراطورية الغربية والموجه الأول للسياسة الإمبراطورية، وإيتيوس من مواليد إقليم مؤيزيا السفلي، ووالدته إيطالية لذلك وضع في قائمة الرومان، وعمل والده كقائد في روما، ووقع رهينة للهون فتعلم لغتهم، وأقام صداقة مع ملكهم السابق روجا، وكذلك قضى ابنه كابيليو- Capilio بضع سنين رهينة في بلاط الهون.

وقد أشار بعض الكتاب الرومان مثل ريناتوس فريدير- Renatus Frideridus حيث قال: "إنه رجل خال من الطمع والجشع، ولا يهتم إلا بمصالح الإمبراطورية، وكان قائدًا قديرًا، ففي

---

(1) Otto, The World of The Huns, PP. 204-205.

أول عهده تمكن من إحباط خطة القوط الغربيين عند محاولتهم الاستيلاء على أرل Arels واحتلال ناريونيس Narionese في بلاد الغال، وفي عام ٤٣٦م حقق أحد القادة التابعين له نصرًا مؤزرًا على البرجنديين وهو الحدث التاريخي الذي تحدثت عنه ملحمة النبلونجليد- Nibelanglied (١).

وفي عام ٤٤١م قرر أتيلا إنهاء أي علاقة ودية تربطه بروما عندما حدثت المشكلة الأولى والخطيرة لروما مع أتيلا عندما ذبح الهون التجار الرومان الذين ذهبوا إلى نهر الدانوب لممارسة أعمالهم التجارية، ومن المحتمل أن الأمر الذي دفع أتيلا لاختيار تلك اللحظة بالذات لإنهاء علاقاته الودية مع روما، واستغل أتيلا انشغال الرومان في حربهم ضد الوندال في شمال أفريقيا، حيث كانت هناك أنباء عن إرسال ثيودسيوس الثاني إمبراطور القسطنطينية قوة عسكرية لمساعدة فالنتيان الثالث ضد الوندال في جزيرة صقلية، وهذا الوضع هو الذي جعل الهون يقبلون على مهاجمة هؤلاء التجار دون التعرض لخطر الانتقال، وعندما احتج المبعوثون الرومان على تلك الهجمات لدى أتيلا ألقى مسئولية ما حدث على كاهل الرومان باعتبار أنهم تراخوا في دفع الإعانة المالية السنوية واستمروا في إيواء الهاربين، ومارسوا عمليات نهب المقابر الملكية التابعة للهون، على أن الاتهامين الأولين كان لهما طابع التكرار سواء كانت الاتهامات حقيقية أم غير حقيقية، فمن المحتمل أنها كانت على وشك الحدوث، أما الاهتمام الخاص بالمقابر فقد كان اتهامًا جديدًا وربما كان صحيحًا.

---

(١) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٣٨.

- Edit, H.S, Hist. History, PP. 580-581; Jones, The Decline, Op. cit., PP. 78-79; Bardley, The Goths, Op. cit, P. 105; Previte- Orton, Op. cit, PP. 87-88.

وكان أتيلا قد وجه تهمة نهب المقابر الملكية إلى أسقف مدينة مارجوس -Margus-، الذي حاول نفي التهمة عن نفسه بأن اتفق مع أتيلا اتفاقًا سريًّا بأن يسلم لهم المدينة في مقابل عدم التعرض له، وبالفعل وبدون قتال تسلم الهون مدينة مارجوس المهمة في إقليم مؤيزيا[١].

هذا في الوقت الذي هاجمت فيه جماعات أخرى من الهون أقاليم تراقيا وإيليريا واستولت على مدن نهر الدانوب ذات القلاع، وتلت ذلك فترة من الهدوء المؤقت عام ٤٤٢م، وكانت نتيجته هدنة رسمية، بيد أن السنة التالية شهدت عودة الهون مرة ثانية، فاستولوا على راتياريا -ratiaria- (أركار -Arcar) على نهر الدانوب وقاموا بتدميرها، واستولوا كذلك سنجدونوم -Singidunum- (بلجراد- Belgreade) ونياسيوس Naissus (نيس) - وساردیکا (صوفيا Safia) ثم اتجهوا صوب القسطنطينية واستولوا على فيلبولوس - Philippolus وعندما التحقوا بالجيش الإمبراطوري الذي كان تحت قيادة أسبار، لقى الجيش الإمبراطوري هزيمة نكراء من الهون، ولم يعد أمام القسطنطينية من خيار سوى طلب التفاوض[٢].

وضاعفت المعاهدة الجديدة الإعانة السنوية ثلاث مرات، حيث ارتفعت من سبعمائة رطل من الذهب إلى ألفين ومائة رطل، كما طالب بضرورة عودة الفارين من جنده وزيادة الفدية المقررة على أسرى الرومان لديه، وبذكاء شديد حاول أتيلا جعل القسطنطينية وروما خصمين متناحرين حتى لا يتحدان ضده، وأعلن ضعف روما

---

(١) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٣٩ - السيد الباز العديني، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، صـ٩٨.

- Vasilieiv, Op. cit., P. 103.

(٢) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٣٩.

وعدم الاكتراث من قوتها، وفرض عليها دفع مبالغ مالية كبيرة كانت في البداية في شكل إعانة وفي النهاية في شكل جزية سنوية(١).

ولم يتمكن إمبراطور الغرب فالنتيان الثالث أو بمساعدة إمبراطور الشرق من القيام بأي عمل حربي حاسم لينقذ روما من الإعانات والمذلات المتكررة من قبل الهونه أو يخفف عن كاهلها عبء دفع هذه الأموال الضخمة والإتاوات من قبل أتيلا(٢).

وعقد الإمبراطور ثيودسيوس الثاني إمبراطور الشرق معاهدة لمدة أربع سنوات (٤٤٢-٤٤٦م) وأقر فيها دفع جزية سنوية للهون مقابل عدم اعتدائهم على أراضيهم في الشرق، ومن ثم أخذوا يوجهون نشاطهم للغرب(٣).

وأنهى سلام السنوات الأربع تلك المعاهدة المذلة المشتراه عندما أرسل أتيلا قبائله المعتادة على السلب والنهب عبر نهر الدانوب، وليس من المعروف إذا ما كان هناك زريعة رسمية للقيام بهذا العمل، ومن المحتمل أن هدفه الحقيقي كان الاستمرار في استنزاف موارد الإمبراطورية، وإضعاف معنوياتها إلى حد الوهن الكامل، ونفذ محاربوه غاراتهم المدمرة عبر إقليم البلقان، واتجهوا جنوبًا حتى وصلوا إلى ترموبيلاي Thermoplyae- وأثناء تقدمهم استولوا على سبعين مدينة وقلعة ودمروها جميعًا.

وفي عام ٤٤٨م طلبت القسطنطينية التي لا حول لها ولا قوة فتح باب المفاوضات، وأصرت المعاهدة الجديدة على ضرورة دفع ستة آلاف رطل من الذهب لتغطية متأخرات الإعانة، وفرضت على

---

(١) جوزيف نسيم، المرجع السابق، صـ٨٠ - محمد مرسي الشيخ، المرجع السابق صـ٩٩-١٠٠ - محمود سعيد عمران: المرجع السابق، صـ٨٤.

(2) Burry, A Hist. The Eastern Roman Emlire, PP. 291-293.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، صـ٤٠.

الرومان ضرورة عودة كل الهاربين من الهون، وألزمت الإمبراطور بألا يجند أحدًا من الهون في المستقبل، وأمر الإمبراطور بالجلاء عن شريط من الأراضي طوله مسيرة خمسة أيام في عمق أراضي الإمبراطورية ويمتد امتداد الضفة اليمنى لنهر الدانوب من مدينة سنجدونوم إلى نوفاي Novae– وسستوفا -Sistova- وما أن تم جلاء القوات الرومانية عن تلك المنطقة، وصارت مهجورة حتى استطاع الهون شن غاراتهم عبر هذه الأراضي الخالية من الجند حتى وصلوا إلى تراقيا وإيليريا، دون عائق من أي نوع، وفي ظل وجود هذه الأراضي الشاسعة التي كانت محرمة على الرومان، أصبح من الصعب أيضًا على الإمبراطورية تجنيد القوات المساعدة من بين الشعوب التي تعيش في الشمال[١].

واتفق الإمبراطور ثيودسيوس الثاني وأتيلا على أن تكون مدينة نيشي حدًّا فاصلا بين الطرفين، وقد أساء أتيلا استخدام هذه الأراضي وعاث فيها الفساد والدمار، وقام بالإغارات المستمرة على حدود الإمبراطورية البيزنطية، وفرض سيادته على الكثير من أملاكها[٢].

وشهدت نفس هذه السنة ٤٤٨م وصول أتيلا إلى قمة قوته، واختلف الموقف عن عام ٤٤٣م عندما تم التفاوض بشأن المعاهدة الأولى، فعلى الرغم من أن ثيودسيوس كان قد وافق على زيادة الإعانة السنوية إلى ألفين ومائة رطل من الذهب، فمن الواضح أنه لم يكن لديه نية حقيقية للدفع، وفعلا لم يدفع.

وإذا كانت الإمبراطورية قد تمكنت من عدم السداد دون خطورة عام ٤٤٣م فإن أتيلا بعد عام ٤٤٨م لم يكن على استعداد

---

(١) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٤٠.

- Jordanes, Op. cit., P. 57; Vasiliev, P. 98.

(2) Burry, Hist. of The Eastern Roman Empire, PP. 292-293.

للتغاضي عن الإخلال بشروط المعاهدة، واستقر الموقف سنوات قلائل، ويبدو أن أتيلا قنع بالحصول على الإعانة السنوية الباهظة من الإمبراطورية الشرقية، ورضي بالحصول على "الراتب" الذي كان يأخذه من الإمبراطورية الرومانية الغربية باعتباره "سيد الجند"(١).

وفي عام ٤٤٩م استغل أتيلا أحداث المؤامرة التي دبرها كرسافيوس Chriysaphius- الوزير صاحب السلطة والنفوذ في عهد ثيودسيوس الثاني، وكان كريسافيوس، قد اعتقد أنه نجح في استمالة إدكون Edcon- المستشار الرئيسي لأتيلا وقدم إليه رشوة ضخمة مقابل اغتيال أتيلا، بيد أن إدكون كشف عن تفاصيل المؤامرة لسيده عند عودته من المجر، ورغم فشل المؤامرة ألا أن أتيلا أظهر حنقًا على الإمبراطورية ورغبة في النيل منها، وقد طالب أتيلا من الإمبراطور الشرقي بإعدام كريسافيوس(٢).

وفي الثاني من يوليو عام ٤٥٠م توفي الإمبراطور ثيودسيوس الثاني، وبعد مضي أربعة أسابيع، وفي السادس والعشرين من أغسطس انتخب مجلس الشيوخ مارقيان (٤٥٠-٤٥٧) بدلا منه، وكان مشهورًا لشخصه بالمهارة الحربية والسمعة الطيبة، حيث عمل في المجلس الحربي معاونًا للقائد العظيم أسبار الذي كان يعتبر أقوى القادة الشرقيين، وتعهد لمجلس الشيوخ بأنه سيدفع عن كاهل القسطنطينية كل الالتزامات المادية التي كان يحصل عليها أتيلا وجيشه، ودعمه مجلس الشيوخ بقوة؛ لأنه هو الذي عانى بشدة من الإتاوة التي كان يحصل عليها أتيلا(٣).

---

(١) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٤٠.

(2) Gordon, The Age of Attila, P. 95; Jordans, The Goths, P. 58.

(3) Jordanes, The Goths, P. 58.

وإذا كان مارقيان قد وعد مجلس الشيوخ بالتوقف عن سداد الإعانة السنوية إلى أتيلا، فإنه كان صادقًا في وعده، فبعد أن أصدر أوامره بإعدام كريسافيوس أرسل مندوبه إبولونيوس Apollonius– لإبلاغ أتيلا بعدم دفع أي إعانة له. وعندما علم أتيلا بطبيعة مهمة إبولونيوس رفض مقابلته على الرغم من أنه طلب الهدايا التي اعتادت تلك الوفود على حملها، ولابد أن بعضًا من شجاعه مارقيان انتقلت إلى أبولونيوس؛ لأنه أعلن أنه طالما أن أتيلا رفض مقابلته فإنه لن يعطيه الحق في الحصول على الهدايا(١).

ورغم حنق أتيلا مما فعله إبولونيوس، وكان في استطاعته قتل مندوب مارقيان، ورفض ذلك لسببين، الأول: حتى لا يظهر أمام حلفائه من الجرمان بعدم إحترامه للمواثيق والأعراف الخاصة بالجرمان، والسبب الثاني: أنه لا يريد محاربة القسطنطينية لحصانة أسوارها وعدم وثوقه في حلفائه الجرمان(٢).

وفي ربيع عام ٤٥١م تحرك أتيلا بجيشه الضخم تجاه نهر الراين في هجوم استهدف منه فرض سيادته على الإمبراطورية الرومانية الغربية، ولابد أن توقف الحصول على الإعانة من القسطنطينية كان سببًا آخر، واستطاع أتيلا وأتباعه من الهون مهاجمة أقاليم البلقان وقتما شاءوا، بيد أن الإغارات الأولى تركت تلك الأقاليم خاوية على عروشها إلى الحد الذي جعل أي غزوات يقوم بها الهون لتلك المنطقة قليلة الجدوى.

ومن ناحية أخرى فإن احتلال القسطنطينية لم يكن أمرًا واردًا، إذ أن الاستحكامات التي شيدها الإمبراطور أنثيموس عام ٤٣١م عززت موقفه عام ٤٣٩ ومرة ثالثة عام ٤٤٧م، كما أنه في حالة شن

---

(1) Otto, Op. cit., P. 204; Vasiliev, Op. cit., P. 98.

(2) Burry, Op. cit., P. 291.

الهون لهجماتهم على تلك التحصينات لم يكـن هنـاك سـبيل لمنـع الأسطول البيزنطي من إمدادها بكل ما تحتاجه من المواد التموينيـة، بالإضافة إلى ذلك فإن فشل محاولات الهون فـي الاسـتيلاء علـى القسطنطينية كان سيعرض وجود إمبراطورية الهون للخطر الشـديد، وإذا ما لاحت بادرة ضعف فسيرتد الملوك الجرمان عن ولائهم لسلطة أتيلا، وسيضمحل ولاء قادة القبائل الأخرى البعيدة(١).

والحقيقة أن أتيلا كان موفقًا في القرار الذي اتخذه بعدم مهاجمة القسطنطينية والاندفاع في هذه الخطة الحربية المتهورة، لأنه كان على علم بتحصينات القسطنطينية، وكان من السـهل علـى القسـطنطينية الحصول على مساعدة الأسطول البيزنطي، وخشي كذلك تخلي حلفائه من الجرمان عنه في الوقت المناسب، لذلك قـرر الانصـراف عـن مهاجمة القسطنطينية(٢).

وعلى العكس تمامًا فإن الإمبراطورية الرومانية كانت تخلو من التحصينات القوية، وكانت روما مرتعًا خصبًا لأتيلا وشعبه من الناحية العسكرية، وتقدم في اتجاه البلقان، حيث كانت أرضا مفتوحـة بـدون تحصينات، والواقع أن هذه الجبهة كانت لا ترضي طموحه وأمانيه في الحصول على الثروة والغنائم، لذلك قرر التوجه إلـى بـلاد الغـال وإيطاليا، وخاصة بعد أن استردت رخاءها وغناها منذ همجمات القوط الغربيين والوندال عليهـا، فحـول وجهتـه إليهـا، لـذلك قـررت الإمبراطورية التصدي لغزوات أتيلا، ولم يكن هنـاك سـوى القائـد العظيم إيتيوس، الذي كانت تقابله مشكلة كبرى، حيث أن جيشه بدون المرتزقة الهون ضعيف، وخاصة أن العلاقات بين القـوط الغـربيين وروما كانت سيئة جدًا، لذلك وضع أتيلا القائد إيتيوس في موضـع لا

---

(١) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٤١-٤٢.

(2) Bernard, S.A, History of Alansin The West, P. 267.

يحسد عليه، حيث لم يبق له أي أحلاف يمكن الاعتماد عليهم في معركته الفاصلة مع الهون(١).

ويبقى السؤال عن السبب الذي جعل أتيلا يختار هذا الوقت بالذات لشن هجومه على الإمبراطورية الغربية؛ ربما تكون الإجابة على ذلك هي رفض الإمبراطورية الشرقية دفع الإعانة السنوية للهون، ويقدم المعاصرون تفسيرات جديدة أخرى؛ بيد أن المؤرخ المدقق ربما يجد تصديقها من الصعوبة بمكان. وتحكي إحدى القصص أن أحد الرعاة وجد في باطن الأرض "سيف أريز" – إله الحرب عند الإغريق– المقدس لدى ملوك السكيثيين مما أقنع أتيلا بأنه سيكون سيدًا على العالم(٢)، وأطلق على نفسه "سيد العالم المنتظر"؛ لذلك كان عليه أن يقوم بعمل عسكري عظيم ليظهر للعالم مدى صدق روايته.

ولقد أثيرت العديد من الأسباب التي دفعت أتيلا لمهاجمة الإمبراطورية الرومانية، ومنها أسباب خاصة تتعلق بالأسرة الحاكمة نفسها، وكذلك أسباب تتعلق بضعف الإمبراطورية الرومانية نفسها، وأسباب تتعلق بقوة الهون وانطلاقهم.

ومن الأسباب التي دفعت أتيلا لمهاجمة الإمبراطورية الأميرة هونوريا Honoria–(*) نفسها شقيقة الإمبراطور فالنتيان الثالث،

---

(1) Thompson, J.W, The Middle Ages, Zvols, London, 1931, P. 98; Burry, Op. cit., PP. 292-294; Com-med. Hist, Vol. PP. 280-281.

(٢) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٤٣.

(*) هونوريا تعلمت في القصر الملكي في رافنا، ونشأت وهي تحمل لقب أوجستا – Augusta ولكنها عندما كانت في السادسة عشر من عمرها رمت نفسها في أحضان صاحب الغرفة الملكية، والقائم على تدبير شئون القصر ويدعى شمبرلين – Chamberlain Augenius– وكانت جريمتها وعارها قد ظهر بظهور علامات الحمل عليها، وقرر إعدامها، ولكن ولادتها بلاسيديا ترجته أن يرسلها إلى منفى بعيد في=

وتدخل أتيلا نتيجة لحماقة هونوريا التي كانت ثائرة من أخيها الإمبراطور بسبب إجبارها على الزواج من شخص تكرهه من مجلس الشيوخ، وحاولت هونوريا عدم إتمام هذا الزواج فأرسلت سرًا الخصي هيكنثوس Hyacinthus– إلى أتيلا لمناشدته مساعدتها وزودت رسولها بخاتمها، لكي تقنع أتيلا بمصداقية طلبها، وفسر أتيلا إرسال الخاتم على أنه عرض للزواج به؛ لذلك أرسل على الفور إلى الإمبراطور فالنتيان يطلب يدها، ويطالب بنصف الإمبراطورية كدوري dowry – (مهر) لزواجه من الأميرة، وعلى الفور أمر فالنتيان بقطع رقبة هيكنثوس، وأوشك أن يفعل الشيء نفسه مع هونوريا لولا توسلات ولادتها بلاسيديا، ومع ذلك أجبرها على الزواج من عضو بمجلس الشيوخ حتى يضع نهاية لهذه المشاكل(١).

وإن كانت هذه الرواية مشكوك في صحتها ومبالغ فيها، لما اشتهر به أتيلا من قباحة الوجه وعنف وشراسة الشخصية والعادات والتقاليد السيئة إلى أبعد الحدود، مما يجعلنا نشك في أن الأميرة هورنوريا الجميلة سليلة الرقي والحضارة والفكر الروماني تفكر في الارتباط به مهما كانت الدوافع(٢).

وهناك سبب آخر جعل أتيلا يقدم على غزو أيطاليا –روما– بتحريض من جذريك ملك الوندال الذي كان يخشى تهديد القوط

=القسطنطينية، حيث بقيت الأميرة هناك حوالي اثني عشر إلى أربعة عشر عامًا، في مجتمع ديني متزمت في قصر الأميرة بولكارديا وشقيقاتها اللواتي قضين وقتهن في صوم وصلاة وحياة تنسك ورهبنة، وجعلوا قصرهن محرمًا على الرجال. انظر:

- Jones, The Decline of The Ancinet world, P. 79.

(1) Com. Med. Hist, Vol. 1, PP. 266-267; Hodgkin, Italy, Vol. 1, P. 885.

(2) Com. Med. Hist, Vol. 1, P. 267; Boak, Op. cit., PP. 383-384; Hadas, Op. cit, P. 244.

الغربيين لمملكته، فقد ذكر المؤرخ القوطي -جوردن-: عندما علم ملك الوندال جذريك أن أتيلا ملك الهون عزم على تدمير العالم، حرضه على شن الحرب ضد القوط الغربيين، وقام بإرسال الهدايا الثمينة لترغيبه في ذلك الأمر؛ لأن جذريك كان يخشى انتقام ثيودريك ملك القوط الغربيين بسبب الأذى الذي لحق بابنته، حيث أن ابنة ثيودريك قد تزوجت من هومرك -Humeric- ابن جذريك، وكانت سعيدة في زواجها في بداية الأمر، وتبدل الموقف، وأصبح قاسيًا معها ومع أطفالها؛ لأنه شك في أنها حاولت دس السم له، فقام بجذع أنفها وسلم أذنيها وأعادها إلى والدها الذي قرر الانتقام لابنته بعد أن حرمها هذا الوحش جمالها، وظلت تطالب والدها بالثأر والانتقام لها، وبذل أتيلا جهودًا لإشعال نيران الحرب بتحريض جذريك الذي قدم إليه الهدايا والأموال، وحاول أتيلا قدر استطاعته الوقيعة بين القوط والرومان(١).

ويذكر المؤرخ -بيوري- أن أتيلا كان أذكى من الدخول في مغامرة كبيرة لصالح الوندال، ولكن دفعه إلى تلك الحرب والتحريض عليها مصالحه الشخصية في المقام الأول، ورغبته في الهيمنة على أملاك الإمبراطورية الرومانية، واستغلال ضعفها في مواجهة الجرمان، وفي الوقت الذي كان يأمل أتيلا من ثيودريك الأول ملك القوط الغربيين الوقوف بجانبه لحرب روما، ولكن ثيودريك آثر الانضمام إلى القوات الرومانية وحلفائها، خوفًا من خطورة الهون الذين لو انتصروا على روما سيلحق بالقوط الغربيين مثلما لحق بهم قبل ذلك واجتاح الهون مملكتهم حتى وصلوا إلى أورليان(٢).

ويرفض المؤرخون رواية -جوردن- بصفة عامة باعتبارها من صنع الخيال باستثناء الجملة التي تتحدث عن دهاء أتيلا، ففيما

---

(1) Jordans, The Goths, PP. 57-58; Bradley, The Goths, PP. 116-117.

(2) Burry, Op. cit., PP. 293-294; Jordons, The Goths, PP. 57-58.

يتعلق بالدهاء فهناك دليل على أن أتيلا حاول منع القوط الغربيين والرومان من حشد قواتهما ضده بمحاولة إقناع كل طرف أنه ينوي محاربة الطرف الآخر، وعلى أية حال فإن أمله في أن يبعد هذين العدويين اللذين لهما ثقلهما القوي كان تصرفًا حكيمًا، كما كان القوط والرومان أعداء منذ الحرب التي استمرت عام ٤٣٦-٤٣٩م عند ناربونيز Narbonese- في بلاد الغال وأورال، حيث ادعى القوط الغربيون أنها تتبعهم، وفي عام ٤٤٦م منح ثيودريك الحماية إلى سباستيان القائد الروماني، بعد أن لجأ إليه حين فشلت محاولته لإحباط خطة إيتيوس لتولي منصب قيادة الجند، وبعد قليل وفي السنة نفسها حصل ثيودريك على موافقة أتيلا، بالإضافة إلى إمداده بقوات من الهون إبان محاولته فتح أسبانيا[1].

على أن فشل أتيلا في أحداث تباعد بين روما والقوط الغربيين أنقذ الإمبراطورية في الغرب، ولفترة من الوقت بدأ يتردد ويتساءل عما إذا كان من غير مصلحته أن يرى الرومان والهون يقتتلان حتى يفني كلٌ منهما الآخر، كما أن هذه الفرصة السعيدة بالنسبة له سوف تمكنه من احتلال ناربونيز في بلاد الغال دون معارضة، وكما حدث فإن خطر أتيلا كان شاملا، وعرض ثيودريك أن يشارك إيتيوس.

ومن المثير للانتباه أنه لم يطلب التنازل له عن إقليم آرل ثمنًا لتعاونه، وكان قرار ثيودريك مدهشاً بكل ما في الكلمة من معنى؛ لأن الجيش الذي أعده إيتيوس للتصدي لأتيلا، ربما كان من أضعف الجيوش التي تولى قيادتها. وزاد الأمر خطورة عدم وجود قنوات مساعدة من الهون الذين اعتاد إيتيوس الاعتماد عليهم بصفة دائمة، وتكون الجيش الذي عبر به جبال الألب من القوات الرومانية

(١) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٤٣-٤٤.

- Dill. S. Roman Society, P. 290.

بالإضافة إلى الجماعات الجرمانية، التي كانت قد استقرت داخل حدود الإمبراطورية مقابل أداء خدمات عسكرية -Laeti-، وكذلك قوات المحالفين الذين عاشوا على امتداد حدود الإمبراطورية، وتعهدوا بالدفاع عن الحدود -Foederati- وهم الذين توقع حضورهم لمساعدته عندما وصل إلى بلاد الغال[١].

ويمكن أن تُعزى السهولة التي توغل بها أتيلا في قلب بلاد الغال إلى سياسته الماكرة، وإلى الزعر الذي سببته جيوشه، وكان يهدئ الرومان والقوط تارة ويهددهم تارة أخرى.

ولما كان بلاط رافنا وبلاط تولوز يرتاب كل منهما في نوايا الآخر، فقد كانا يرقبان اقتراب عدوهما المشترك في خمول ودون اكتراث وكان إيتيوس هو الحارس الوحيد لسلامة الإمبراطورية، وكان أهالي روما يرتعدون عند سماع أبواق الحرب، أما البرابرة الذين كانوا يميلون إلى مناصرة أتيلا بدافع من الخوف أو الحب، فقد انتظروا وقوع الحرب في إيمان مزعزع، وعبر الرومان جبال الألب على رأس بعض الفرق التي لم تكن جديرة بأن تطلق عليها اسم جيش، وعند وصولهم إلى مدينة آرل أزعجته الأخبار التي بلغته من أن القوط الغربيين رفضوا الدفاع عن بلاد الغال، وقرروا لقاء أتيلا.

وتولى منصب القيادة عضو السناتو أفيتوس، وصور لثودريك ملك القوط الغربيين أن أتيلا الذي تطلع للسيطرة على العالم لا يمكن أن يقاومه إلا تحالف جماعي قوي بين الدول التي يسعى إلى اضطهادها وتضييق الخناق عليها، وقد ألهبت فصاحه أفيتوس صدور محاربي القوط عندما وصف لهم الأضرار التي ألحقها الهون بأجدادهم، وذكرهم بأن ثورة الهون الحقودة لا تزال تلاحقهم من

---

(١) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٤٤

- Jones, The Decline The Ancient, P. 78.

الدانوب إلى سفوح جبال البرانس واستحثهم بشدة قائلا: "إن من واجب كل مسيحي أن ينقذ كنائس الله وعظام القديسيين من أن تدنسها أقـدام الهون".

وعلى الفور أعلن ثيودريك أنه حليف للرومان ولإيتيوس، وأنه على استعداد لبذل حياته ومملكته في سبيل بلاد الغال التي يشتركون فيها جميعًا(1).

وأعلن ثيودريك الأول إرسال قوات ضخمة لمساعدة إيتيوس في الحرب من الرجال والأسلحة والخيول، وتجمعوا تحت قيادة ملكهم العجوز ثيودريك، وابنه الأكبر ثوريسموند -Thorismond-، وكان هذا حدثًا خطيرًا بالنسبة لإيتيوس، لأنه أعاد إليه التوازن من ناحية، كما ضمن ولاء القوط الغربيين له أثناء الحرب من ناحية أخرى(2).

واستطاع إيتيوس الحصول على بعض المساعدة أيضًا من الفرنجة الريبوريان -Riphrian- الذين اعترفوا بخلافه الابن الأصغر للملك المتوفى، وقد لجأ الابن الأكبر إلى أتيلا للاعتراف به، وكان دافع أتيلا على التحرك هو إمكانية ضمان التحالف مع الفرنجة لصالحه، ومهما كان الحال فإن إيتيوس كان قد تبنى الابن الأصغر من قبل ووعده بمساعدة روما، أما سانجبون -Sangibon- ملك الألان فكان يحكم دولة صغيرة تشمل مدينة أورليان التي اتخذها عاصمة له.

وفي وقت سابق لهذا صار من الواضح بالنسبة لإيتيوس أنه لن يستطيع الحصول على جنود مرتزقة مع الهون؛ لذا فإنه أعطى تلك الأراضي إلى الألان مقابل تعهدهم بالمحافظة على سلطة الإمبراطورية في تلك المنطقة، بيد أن -جوردن- مصدرنا الرئيسي

---

(1) أدوارد جيبسون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، جـ2، ترجمة محمد سليم سالم، طـ2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997، صـ184.

(2) Com. Med, Hist, Vol. 1, PP. 280-281.

عن الخلفية التاريخية لمعركة شالون قرر أن سانجبون لـيس سـوى حليف خائن في أحسن الأحوال، وأن إيتيوس خشي أن تكـون هنـاك علاقات بينه وبين أتيلا، بيد أن بعض المؤرخين حملوا على جوردن، إذ حاول أن ينسب لبني جلدته من القوط الغربيين النصـر المرتقـب على أتيلا في موقعة شالون، وربما تعمد تشـويه تـاريخ سـانجبون والألان، وأيا كان الحال، فإن إيتيوس كان يأمل فـي تلقـي مسـاعدة الحلفاء الآخرين من الفرنجة الساليين والبورجنديين من سانوي والكلت من أرموريكا -Armorica- وبعض السكسون الذين عاشـوا شـمال اللوار، على أن الجيش القوطي الذي أحضره معه ثيودريـك الملـك المسن كان أكثر من كل أصدقاء إيتيوس أهمية وقوة(١).

واستطاع القائد إيتيوس بمثابرته التي لا تكل أن يجمع بالتدريج قوات الغال والجرمان، وكانت تلك القوات من قبل تسلم بأنها رعايـا الدولة أو جنودها، ولكنها ستطالب بالمكافأة على التطـوع بالخدمـة، وبوضع الحلفاء المستقلين، وهي قـوات اللايتـي، والأرموريكـان، والبريتون، والسكسون، وقبائل برجانديا، وسرماشيا أو الألاني، وقبائل ربيواريا، والفرنجة، وكان ذلك هو الجيش الخليط الذي قاده إيتيـوس وثيودريك، وتقدم في مسيرة سريعة لإنقاذ مدينة أورليـان ولخـوض معركة ضد جحافل أتيلا(٢).

على أن الجيش الذي صحب أتيلا إلى نهر الراين كان متفوقًـا في العدد تفوقًا ساحقًا بالنسبة إلى ما استطاع كل من إيتيوس وثيودريك

---

(١) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ ٤٤-٤٥.

- Com. Med. Hist, Vol. 1, P. 281; Fliche, Lachretiente Medievol, P. 29.

(٢) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـ ١٨٥.

- Burry, Op. Cit. Vol. 1, P. 294.

جمعه لمجابهته، وكان أمرًا بديهيًا أن ذكر المعاصرون أن جيش أتيلا اقترب من نصف مليون مقاتل، إذ كان هذا الجيش بالنسبة لهؤلاء الكتاب مثيرًا للفزع بالنسبة لتعداده وشراسته، وأما افتراضهم أنه حوالي نصف مليون فإنما هو تعبيرهم عن هذا الذعر، وعلى شاكلة جيش إيتيوس تكون جيش أتيلا أيضًا من مجموعة مختلفة من الشعوب، فبالإضافة إلى أتباعه من الهون كان هناك عدد من الشعوب الجرمانية الهروليون من البحر الأسود والسكريون من جلاكيا – Glaicia والروجيون -Rugians- من إقليم ثيسي الأعلى، والثورنجيون -Thuringians- من القوط الشرقيين تحت قيادة ملكهم، والجيبيد من جبال داكيا تحت ملكهم أردريك، بالإضافة إلى البورجنديين من شرق نهر الراين، وهؤلاء الفرنجة الروجيان هم الذين دانوا بالولاء للأخ الأكبر في نزاعه على العرش.

وبالرغم من أن الجرمان قاتلوا تحت قيادة قادتهم فإن أتيلا تولى منصب القائد العام وحدد استراتيجيته الأخيرة(١).

وكان جيش أتيلا يبلغ تعداده حوالي مائة ألف رجل، وتشير بعض التقديرات أن تعداده يصل إلى نصف مليون، وكان الفرسان هم عماد الجيش، إلا أن أتيلا أضاف عنصر المشاه، وأغلبهم من أفراد القبائل المهزومة(٢)، وقد جعل أتيلا من نفسه قائدًا أعلى للجيوش رغم وجود العديد من الملوك الجرمان الذين قدموا بأنفسهم المساعدة لأتيلا(٣).

أما القائد إيتيوس رغم قلة عدد جيشه بالنسبة لعدد الهون، إلا أنه لم يتجاهل وجود القادة من الجرمان ورفع معنوياتهم، بأن أعطى

---

(١) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٤٥.

(٢) مايكل لي ننغ؛ المرجع السابق، صـ٢٢٢.

(3) Fliche, lachretiente Medieval, P. 24.

لهم حق قيادة الجيوش والاحتفاظ بالسيطرة على فرقهم مع تلقي الأوامر منه شخصيًا(١).

ومن المحتمل أن التفوق العددي المشكوك فيه عند أتيلا تعادل مع تفوق أعدائه في الأسلحة والملابس الواقية إلى الحد الذي جعل بعضهم يفاخر بذلك. وكان بكلا الجيشين فرق من المشاه ووحدات من الفرسان. ولكن عند مقارنة الفارس ثقيل العدة بزميله خفيف العدة، نجد أن الرومان أحرزوا تفوقًا بينًا.

وإبان عصر الجمهورية اعتمدت روما كلية على المشاة، ولم تبدأ روما تجنيد الفرسان إلا في القرن الثالث الميلادي، ولم تفعل ذلك إلا وهي مكرهة للتصدي لرماة السهام من البارثيين والساسانيين.

وشهد القرنان الرابع والخامس الميلاديان اعتمادًا أكثر على الفرسان، بالرغم من أن روما وجدت بصفة عامة أن الأوفر لها الاعتماد على القوات المساعدة من البرابرة لإمدادها بالفرسان، وحارب هؤلاء الفرسان تحت قيادة رؤساء قبائلهم على الرغم من أنهم قبلوا أوامر إيتيوس عندما كان في موضع القيادة.

ومن المحتمل أن الفرسان ثقيلي العدة -Cataphracts- كانوا أفضل فرسان ذلك العصر، وهم الذين استخدمهم أباطرة القسطنطينية على نطاق واسع، وكان الفارس ثقيل العدة يضع على رأسه خوذة من الصلب ويرتدي قميصًا مدرعًا، ويحمل خنجرًا وفأسًا حربية ورمحًا وقوسًا وترسًا مستطيلا.

وبعد موقعة شالون بحوالي خمس وسبعين سنة كتب بروكوبيوس عن هؤلاء الفرسان، واعتبرهم أفضل الفرسان في العالم.

---

(1) Jordones, The Goths, PP. 57-58; Com. Med. Hist, Vol. 1, PP. 280-281.

ومن المشكوك فيه أن إيتيوس كان عنده فرسان ثقيلي العدة على النمط البيزنطي، بيد أنه فاخر بما عنده من بعض الفرسان المسلحين تسليحًا مكثفًا، وكانت أسلحة الأغلبية العظمى من فرسانه خفيفة، ولم تزعن القوس والرمح إلا قليلا، وحاربوا وهم في حماية الفرسان الأكثر عدة، كما عملوا في الدفاع عن القلاع(١).

وفي أوائل ربيع عام ٤٥١ حرك أتيلا جيشه من بانونيا -Pononia- إلى لورين، وفي السادس من إبريل قبل عيد الفصح بيوم واحد استولى على مدينة متز -Metz- ودمرها، وتعرضت مدينة ريمسس -Rheims- إلى نفس المصير، بيد أن باريس نجت بفضل القديس جينيفيف -St. Genevieve- ويقال إن أتيلا تجنب باريس بسبب دعاء فتاة صغيرة، ولكن الأرجح أنه تجنبها بسبب دفاعاتها المنيعة والحصينة، وواصل تقدمه لمحاصرة أورليان(٢).

وتقدمت الجيوش المتحالفة من الرومان والجرمان إلى مدينة أورليان، وأسرع ملك الهون برفع الحصار عنها فورًا، وأصدر أوامره بالتقهقر لكي يستدعي مقدمة قواته، التي كانت قد اقتحمت المدينة وأخذت تعمل فيها نهبًا وسلبًا. وامتد بصر أتيلا إلى النتائج المميتة التي قد تترتب على هزيمته في قلب بلاد الغال، لذلك اجتاز نهر السين، وانتظر العدو في سهول شالون -أو سهل موريال- التي يناسب سطحها اللين المنبسط حركات فرسانه السكوزيين، غير أن طلائع الرومان وحلفاءهم استغلت هذا التقهقر، وواصلت الضغط على

---

(١) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٤٦.

- Villari, The Barbarian, PP. 91-92.

(2) Jordanes, The Goths, P. 58; Gordon, Op. cit, P. 95; Otto, Op. cit, P. 204.

- مايكل لاننغ: المرجع السابق، صـ٢٢٢.

القوات التي وضعها أتيلا في المؤخرة واشتبكت معها أحيانـــا، وفــي ظلام الليل وتشعب الطرق كانت الفرق المعادية تصطدم مــن غيــر قصد، كما حدث بين الفرنجة وقوات الجيبيداي، حيث قتل خمسة عشر ألفًا من البرابرة، وكان ذلك كله مقدمة لعمل حاسم عام.

ويذكر -جوردن- أن حقول قطالونيا تحـيط بمدينــة شــالون، وتمتد إلى مسافة مائة وخمسين ميلا في طولهــا، ومائــة ميــل فــي عرضها، وهذا المكان يتميز بعدم الاستواء، وكان هناك مرتفــع مــن المرتفعات يتحكم في معسكر أتيلا، ومن ثم أدرك إيتيوس وأتيلا أهمية السيطرة عليه، وتمكن القائد الشجاع توريسموند من احــتلال قمتــه، واندفع القوط نحو الهون بثقلهم الذي لا يقاوم، وجاهــد الهــون فــي الصعود إلى السفح المضاد، وكان احتلال هذا الموقع يبث في كل من الجيشين وقوادهما اطمئنانًا كبيرًا إلى النصر.

ودفع القلق أتيلا إلى استشارة كهنته وعرافيه، وقيل إنه بعد أن فحص أحشاء الذبائح وكشط عظامها، أعلنوا في لغة مبهمة أنه سوف يهزم، وأن خصمه الرئيسي سوف يلقى حتفه(١).

غير أن اليأس غير العادي الذي كان يبدو أنــه ســيطر علــى الهون دفع أتيلا إلى استخدام الوسيلة المألوفة لدى القادة القدامى وهي إلقاء خطاب عسكري يبعث العزيمة والقوة في نفوس قواته، فحضــهم على تذكر أمجادهم السابقة والخطر المحدق بهم، وصور لهم في دهاء أن حذر أعدائهم وتحالفهم الوطيد، وميزة المراكز التي يحتلونها هــي نتيجة للخوف دون الحكمة.

واستطرد يقول: إن القوط الغربيين هم وحدهم الذين يشــكلون قوة العدو وعصبه، وأكثر الهون يمكن أن يقهروا الرومان المنحلــين،

---

(١) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـــ١٨٥-١٨٦.

- Jordanes, The Goths, P. 62; Gordon, Op. cit, P. 95.

والذين تعوزهم القدرة على تحمل أخطار ومتاعب معركة تدوم يومًا واحدًا.

ثم حرص ملك الهون على أن يبث فيهم عقيدة القضاء والقدر التي تقوي فضيلة الحرب والقتال، وأكد لهم أن المحاربين الذي ترعاهم السماء وتحميهم سوف يكونون في مأمن ومناعة وسط سهام العدو، غير أن الإلهات الثلاث المعصومات من الخطأ واللاتي يتحكمن في حياة البشر ومصائرهم سوف يصبن ضحاياهن إن استكانوا إلى سلام شائن[1].

وأضاف الملك أتيلا قائلا لجنوده:

"ولسوف أرمي بنفسي الرمح الأول، أما ذلك المنكود الذي يأبي أن يحذو حذو مليكه فسوف يكون مصيره إلى الموت المحقق".

واشتعلت روح البرابرة بوجود قائدهم الجريء وبسماع صوته، وبالمثل الذي ضربه لهم، واستجاب أتيلا للهفتهم على القتال، وتأهب على الفور لخوض المعركة، واحتل بنفسه المركز الأوسط من خط القتال على رأس رجاله البواسل المخلصين.

وفوق المنطقة الواسعة التي تشغلها حقول قطالونيا، وقفت القوات التابعة لإمبراطوريته على امتداد الجناحين، فكانت هناك قوات الروجيان والهرولي والثورينجيان والفرنجة وبرجانديا، وتولى أرداريك ملك الجيبيداي قيادة الجناح الأيمن، أما الأشقاء الثلاثة الشجعان الذين كانوا يحكمون القوط الشرقيين، فقد تولوا قيادة الجناح الأيسر لمجابهة أقربائهم قبائل القوط الغربيين[2].

أما تنظيم الرومان وحلفائهم فساروا وفق مبدأ مختلف، حيث أن الإمبراطورية سارت على مبدأ الحصول على المساعدات من الشعوب

---

(١) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـ١٨٦.

(٢) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـ١٨٦.

الجرمانية التي عاشت داخل حدود الإمبراطورية الرومانية كمحالفين لروما، وكان يشترط عليهم أداء الخدمة العسكرية وقت الحرب والدفاع عن حدود الإمبراطورية، وكان ذلك ينطبق على سانجبون ملك الألان، الذي حاول الحصول على العديد من المكاسب مقابل انضمامه إلى القائد الروماني إيتيوس، وقبل إيتيوس إعطاءه أراضي شاسعة من الإمبراطورية، وكان إيتيوس يتوجس خيفة من الألان، ولا يأمن جانبهم(١)، فوضع سانجبون ملك الألان الخائن في مركز الوسط، حيث يمكن مراقبة تحركاته مراقبة دقيقة، وحيث يمكن معاقبته على الفور إذا بدرت منه خيانة، وتولى إيتيوس قيادة الجناح الأيسر، وتولى ثيودريك قيادة الجناح الأيمن، بينما ظل تورسموند مسيطرًا على المرتفعات التي يبدو أنها كانت تمتد إلى جناح الجيش السكوزي، وربما إلى مؤخرته، وهكذا اجتمعت كل الأمم من نهر الفولجا إلى المحيط الأطلنطي فوق سهل شالون، غير أن كثيرًا من هذه الأمم الحزبية، والهجرات والغزو، وكأن وجود جيوش وأعلام متشابهة يهدد بعضها البعض من الأشياء التي تعطي صورة لحرب أهلية(٢).

ودخل أتيلا أرض المعركة وهدفه العاجل كان مقر سانجبون ملك الألان، وإذا قبل المرء رأى -جوردن- المتحيز للقوط، فربما كان هذا الملك قد وعد أتيلا بالتعاون معه، ومع ذلك فهناك من الشواهد ما يدحض إتهام -جوردن-، ويبدو أن أورليان قد عانت من حصار (موي وأوشكت على السقوط في أيدي أتيلا، لولا وصول قوات إيتيوس والقوط الغربيين، مما أجبر ملك الهون على التراجع، وانسحب إلى الشمال الغربي تجاه إقليم بلجيكا -Balgica- وربما كان

---

(1) Com. Med. Hist, Vol. 1, PP. 280-281, Burry, Op. cit, Vol. 1, P. 294.

(٢) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـ١٨٧.

ذلك نتيجة لمطاردة القوط الغربيين وإيتيوس له، وعلى بعـد حـوالي خمسة أميال من مدينة تروي -Troyes- وفي مكـان يعـرف باسـم لوكوس مورياكوس -Locus Mauriacus- ويشار إليه باسم حقـول قطالونية -Catalounian Fields- نصب خيام معسـكره، واسـتعد لإقامة موقع له، وإن كان الموقع الدقيق الذي دارت فيه رحى المعركة مازال موضوعًا للخلاف إلى حد ما، إذ أن المصادر المكتوبة ليسـت واضحة، كما أن الدراسات الأثرية لم تقدم ما يسـاعد العلمـاء علـى تحديد المكان الصحيح؛ ونظرًا للاعتقاد بأن مكان المعركة كـان فـي شالون، واستمر هذا الاعتقاد لعدة قرون، وظل محتفظًا بهذه التسـمية على الرغم من أن المعركة دارت في مكان أقرب إلى تروي، ولاشك أن أتيلا اختار موضعًا مفتوحًا لفرسانه، وأكبـر حيـز مـن المكـان لتحركاته[١].

وإن ذكر بعض المؤرخين عدم خيانة سانجبون، بدليل صـمود أورليان أمام هجوم أتيلا، مما يدل كذلك على قيام سـانجبون حـاكم الألان بالتصدي لأتيلا وعدم خيانته لروما[٢] كما ذكر المؤرخ القوطي -جوردن- وغيره من المؤرخين.

(١) أخطأ المؤرخون وعلى رأسهم جيبون في تسمية المكان الذي هزم فيه أتيلا باسم شالون، وقد استقر رأي معظم المؤرخين على أن هذه المعركة حدثت فـي سـهل موريـال (أو موريكا). انظر في ذلك:

- جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٤٨، سعيد عاشـور، صـ٩١، جيبـون، صـ١٨٧.

- Pirenne, A Hist. of Europe, PP. 29-30; Jones, Decline of the Ancient world, 80; Hadas, Op. cit, P. 244; Flishe, Op. cit, PP. 24-25; Rice, Op. cit, P. 26; Boak, op. cit., P. 384.

(2) Jordanes, The Goths, PP. 61-65; Com. Med. Hist., Vol. 1, PP. 280-285.

ولقد دارت رحى معركة شالون في وقت متأخر بعد الظهر، وقرب غروب الشمس، وهو الموعد الذي حدده أتيلا للهجوم، وذلك حتى لا تتاح الفرصة لأعدائه بمعاودة الكرة عليه وهزيمته، وكذلك حتى يبتعد عن تحقيق نبوءة العرافين الذين حذروه من أنه سيتعرض للهزيمة حتى لو نجح في مقتل إيتيوس، وكان يحمل له كراهية شديدة، وكان على استعداد لتلقي الهزيمة إذا كانت تحقق له مقتل عدوه؛ لذلك أخر بدء المعركة للغسق ليمنع العدو من الحصول على الوقت الذي يحقق له إحراز معركة فاصلة، وكان إتيلا يسخر من قوة الرومان المشاه في مواجهة فرسانه الأقوياء رغم تفوقهم في السلاح والعتاد(١).

وحرص إيتيوس في تقسيم الجيش على وضع ثيودريك ملك القوط الغربيين في الجناح الأيمن تكريمًا له، وهو تعبير عن المكانة

---

(١) ويحكي جوردن كيف أن أتيلا حاول رفع معنويات أتباعه إلى أقصى درجة ممكنة بسخريته من جنود المشاه، فالمعروف أن الهون كانوا فرسانًا؛ لأنهم ارتبطوا بخيولهم منذ صباهم، فأصبحوا فرسانًا لا نظير لهم، فكانوا على قدر كبير من المهارة وسرعة الحركة. وعلى مثال الفارس ثقيل العدة كانوا يحملون الأقواس والسهام، ومن المحتمل أنهم استعملوها ببراعة، وحملوا أيضًا رماحًا طويلة وسيوفًا وخناجر على شاكلة الفرسان ثقيلي العدة، وكانوا يفتقرون إلى البذلة الحربية الواقية المدرعة تدريعًا ثقيلا، ولم يرتد الملابس الواقية سوى أكثرهم ثراء، ولكن الفرسان الهون اعتادوا على وضع خوذات معدنية على رءوسهم كانت تمتد إلى أنوفهم خشية أن يعوق ترس كبير قدرتهم على الحركة، وقد حملوا تروسًا صغيرة مصنوعة من أغصان صغيرة لدنة ومجدولة ومغطاة بالجلد، وكان من عادة الفارس استخدام قوسه في قذف عدوه بوابل من السهام ثم الاقتراب من العدو للدخول معه في معركة وجهًا لوجه مستخدمًا الرمح والسيف. انظر في ذلك:

- جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٤٦-٤٧.

- Com. Med. Hist, Vol. 1, PP. 280-283.

- Jordanes, The Goths, P. 61, 65; Lot, les invasions Germaniques, PP. 52-54.

العليا له، وأدخل ذلك السرور إلى قلب ثيودريك الذي حافظ على إخلاصه لإيتيوس، وأشرك ابنه ثورسموند في الجناح الأيسر معه ومعهم الجنود الرومان وكان يهدف إيتيوس من ذلك عدم غدر ثيودريك به. وكذلك كإجراء أمني وضع سانجبون ملك الألان في القلب لأنه كان موضع شك كما ذكرنا، وثبت بعد ذلك أن الألان كانوا درعًا واقيًا ضد هجمات أتيلا(١).

ونظرًا لأن أضعف أقسام جيش إيتيوس كان القلب، وفقًا لرواية -جوردن- فربما كان القائد الروماني قد قرأ ماكتبه بولبييوس Polybius عن النصر المبين الذي أحرزه هانيبال على الجيش الروماني من جميع الجهات، وكانت هذه هي الخطة التي أتبعها إينيوس ونفذها في معركة شالون، بمعنى أن أتيلا وقع في الفخ نفسه، إذ وضع أتيلا أقوى قواته في قلب الجيش ليواجهوا سانجبون والألان أتباعه، وفي الجناح الأيسر في جيش أتيلا وفي مواجهة جيش القوط الغربيين حشد أتيلا قوات من القوط الشرقيين والجيبيد الذين كانوا أفضل حلفائه من الجرمان، وترك قوات مشتركة في مواجهة إيتيوس(٢).

وقبل أن تبدأ المعركة مباشرة أحرز القائد الروماني إيتيوس ميزة تكتيكية عندما أحتل قمة أحد التلال العالية، والتي سهلت عليه رصد تحركات الهون في سهولة ويسر، ومحاولة الاستعداد لها ومواجهتها، كما أدت إلى رفع الروح المعنوية للجنود الرومان(٣)،

---

(1) Bernard, S.B, A Hist. of The Alans, P. 66; Com. Med. Hist, Vol. 1, PP. 291-293.

(٢) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٤٩.

(3) Jordanes, Op. cit.. PP. 61-65. Vasiliev, Op. Cit, P. 98; Burry, Op. cit., Vol. 1, P. 291.

ودارت معارك ضاربة بين الرومان وحلفائهم والهون وحلفائهم، وفي البداية أصدر أتيلا أوامره لحلفائه من القوط الشرقيين والجيبيداي الذين شكلوا الجناح الأيسر لجيش أتيلا بالانقضاض على ميسرة جيش إيتيوس، وكانت قياد الميسيرة للقائد إيتيوس وتورسموند ابن ثيودريك الأول، وعندما وجد أتيلا قوة المواجهة في ميسرة جيش العدو(١) قرر أتيلا مهاجمة القلب الذي يوجد به سانجبون والألان، واندفع بقوة نحو قلب الجيش الروماني، وبذلك عرض أتيلا الجناح الأيسر لجيشه لهجوم مرعب قام به ثيودريك والفرسان ثقيلي العدة للجيش القوطي، وهاجم إيتيوس ميمنة جيش أتيلا وأمعنوا فيها القتل، حيث كانت الجبهة الأضعف في جيشه، في حين أباد الألان أعدادًا ضخمة من جيش الهون وأطبقوا عليه من كل الجهات، وحاول أتيلا الارتداد والتقهقر، ولكن إيتيوس أحكم قبضته على جيش أتيلا وقتل عددًا كبيرًا منهم(٢).

ولقد مات عدد كبير من الجانبين بسبب التهور الأعمى الذي اتسم به البرابرة، فقد ذكر إسيودورس أن محاربي القوط الذين اشتركوا في تلك المعركة المشهودة أخبروه: "أنها كانت صدامًا وحشيًّا عنيدًا دمويًّا متعدد الأشكال لا نظير له في العصور الحاضرة والماضية".

وقد بلغ عدد القتلى مائة ألف وستة وستين ألفًا، وفي رواية أخرى ثلاثمائة ألف، وهذه المبالغات التي لا تصدق تدل على أن الخسارة كانت جسيمة، وخلال المعارك الصاخبة أظهر رماة السهام من السكوزيين مهارة تفوق مهارة أعدائهم، والتحم الجيشان ومشاتهم التحامًا عنيفًا في قتال مرير متلاحق، وكان الهون يقاتلون تحت نظر مليكهم فاخترقوا مركز الحلفاء الضعيف المزعزع، وفصلوا ما بين

---

(1) Oman, C., History of The Art of War, London, 1898, P. 21.

(2) Jordanes, The Goths, P. 61, Com. Med. Hist, Vol. 1, P. 398.

جناحيهم، ثم استداروا إلى اليسار بحركة سريعة ووجهوا كل قوتهم ضد القوط الغربيين، وبينما كان ثيودريك يسلك طريقه على جواده وسط الصفوف لتقوية عزيمة قواته، أصيب إصابة قاتلة بسهم رماه به نبيل من القوط الشرقيين اسمه أنداجيس، وسقط على الفور من فوق ظهر جواده. وفي فترة من الارتباك والاختلال الشامل وقع الملك الجريح تحت أقدام سنابك الخيول، وكان هذا الموت الخطير تفسير للنبوءة المبهمة التي تنبأ بها العرافون. وابتهج أتيلا لوثوقه من النصر غير أن ثوريسموند الشجاع اندفع نازلا من فوق التلال، وحقق بقية النبوءة، ذلك أن القوط الغربيين ارتبكت صفوفهم نتيجة لفرار قوات الألان أو عجزها، وأعادوا بالتدريج تنسيق أنفسهم لخوض المعركة، وهزموا الهون هزيمة حاسمة، مما اضطر أتيلا للتقهقر[1].

وكان أتيلا قد عرض شخصه في تهور الجندي العادي، غير أن قوات الوسط الباسلة اندفعت إلى الأمام أكثر من بقية الصفوف، ولم يلق هجومها إلا سندًا ضعيفًا، كما أن الجناحين كانا بغير حماية، ولم ينقذ غزاة الألمان والسكوزيين من الهزيمة الساحقة إلا اقتراب الليل، وانسحبت هذه القوات إلى داخل دائرة العربات التي كانت تحصن معسكرهم وتأهبت الفصائل التي نزلت عن خيولها للدفاع عن أنفسها دفاعًا لم تكن أسلحتها ولا طباعها مهيأة له، وأصبحت النتيجة موضع شك، غير أن أتيلا لجأ إلى وسيلة أخيرة غير شريفة، فأمر بجمع سروج الخيل ورياشها الثمينة في كومة جنائزية، وقرر المتبربر عزيز النفس، إذ اخترق العدو متاريسه أن يحرق تلك القومه، ويلقي نفسه في اللهب، وبذلك يحرم أعدائه من المجد الذي كان يمكن أن يحصلوا عليه بقتله أو أسره[2].

---

(١) إدوار جيبون: المرجع السابق، صـ١٨٧-١٨٨.

- Com. Med. Hist, Vol. 1, PP. 398-399.

(٢) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـ١٨٨.=

غير أن أعداءه قضوا الليل في مثل ذلك الارتباك والقلق، وأغرت تريموند شجاعته المتهورة على المضي في المطاردة حتى وجد نفسه فجأة مع قلة من أصدقائه وسط عربات السكوزيين، وحدث قتال ليلي مضطرب وقع في أثنائه من فوق ظهر جواده، وكان لابد أن يهلك الأمير القوطي كما هلك والده، لولا أن قوة شبابه وجرأة رفاقه وحماسهم أنقذته من ذلك المركز الخطير.

وعلى النحو نفسه، ولكن على خط القتال الأيسر، كان إيتيوس معزولا عن حلفائه، ولا يعلم شيئًا عن انتصارهم، ويساوره القلق على مصيرهم، فتقابل مع القوات المعادية المنتشرة فوق سهول شالون، ولكنه أفلت منها، وبلغ أخيرًا معسكر القوط الذي لم يستطع تحصينه إلا بحاجز ضعيف من المتاريس حتى مطلع النهار، وسرعان ما أيقن القائد الإمبراطوري بهزيمة أتيلا الذي كان لا يزال عديم الحركة داخل استحكاماته، وعندما استعرض المشهد الدموي، لاحظ في سرور خفي أن البرابرة هم الذين لحقت بهم الخسارة الرئيسية، ثم اكتشف جثة ثيودريك وهي مثخنة بالجروح الكريهة تحت كومة من القتلى، فناح الرجل على موت مليكهم ووالدهم، غير أن عبراتهم اختلطت بالأناشيد والتهاليل، وأدوا شعائر الدفن أمام عدوهم المقهور، وسط صليل الأسلحة، ورفعوا ابنه الأكبر توريسموند فوق ترس من تروسهم، و نسبوا إليه الفضل الذي يستحقه فيما نالوه من مجد الظفر والنجاح، وقبل الملك الجديد أن يلتزم بالانتقام لموت والده كجزء مقدس من الميراث الذي ورثه عنه(1).

= - Com. Med. Hist, Vol. 1, PP. 398-399.

(1) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـ١٨٨-١٨٩.

- Jordanes, The Goths, P. 61.

غير أن القوط أدهشهم ما كان يبدو على عدوهم القـوي مـن شراسة وعناد، وقال مؤرخهم أن أتيلا كان أشبه بأسـد رابـض فـي عربته يهدد صياديه بهياج مضاعف.

أما الأمم والملوك الذين كان يمكن أن يتخلوا عنه فـي سـاعة المحنة، فقد شعروا بأن غضب مليكهم هو أكثر الأخطار قربًا وحتمية، وعندما تقدمت القوات الأمامية لمهاجمته أمطرتها قواته من كل جانب من جوانب استحكاماتها بوابل من السهام أهلكتها وأوقفتها؛ ولهذا تقرر في مجلس حربي عام قبول معاهدة مذلة أو قتال غير متكافئ، غير أن تلهف البرابرة سرعان ما ازدرى هذه الإجراءات البطيئة الحريصـة، كما أن نضج إيتيوس جعلته يخشى أن تخضع الدولة لصلف الأمـة القوطية وقوتها بعد القضاء على الهون في معركة شالون، وسـارت القوات الميرفنجية بقيادة ميروفتشي -Merovech- في أثر الهـون، وظلوا يتبعونه حتى وصلوا حدود ثورينجيا، وكانت قـوات تورينجيـا تعمل في جيش أتيلا، وربما أن هذه الحرب بالذات مارسـت أعمـال القسوة التي قام بها بن كلوفيس -clovis- بعد انقضاء ثمانين سنة، فقد ذبح رجالها رهائنهم وأسرهم، وعذب مائتين من العذارى الصـغيرات في ثورة عارمة لا ترحم ولا تلين، مُزّقت أجسادهن الخيول الجامحة، وسُحقت عظامهن تحت عجلات العربات الثقيلة، وتركـت أطـرافهن على الطرقات العامة فريسة للكلاب والنسور.

هكذا كان أجدادنا الهمج المتوحشـون الـذين تثيـر فضـائلهم الخيالية في بعض الأحيان حسد الأجيال المتحضرة[1].

ورغم موت ثيودريك الأول فقد أصبح أتيلا في موقف الـدفاع، وكان من السهل على إيتيوس ملاحقته والقضاء عليه نهائيًـا، إلا أنـه

(١) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـ١٨٩-١٩٠.

أوقف الحرب، واكتفى بتراجع أتيلا، حتى أن أتيلا نفسه ساوره الشك في أن العدو يعد له خطة عدوانية، وترتب على ذلك أن قبع عدة أيام داخل نطاق عربته، ثم تقهقر إلى ما وراء الراين، وكان ذلك اعترافًا بأن الإمبراطورية الغربية قد تحقق لها النصر الأخير. وعندما أبدى تورسموند رغبته في مواصلة القتال رفض إيتيوس قائلا: "لابد من العودة لتسلم عرش والدك، وخوفًا من خطط أشقائك التي تهدف إلى الاستيلاء على السلطة والخزائن"(١).

والحقيقة أن إيتيوس لم تكن تهمه مسألة الصراع على عرش القوط الغربيين بين أبناءِ الملك ثيودريك الأول أكثر من اهتمامه بأن ينسب القوط الغربيين النصر الذي تحقق إلى ثورسموند، وخاصة بعد رجحان كفته وما أظهره من براعة بهرت الجميع، لذلك خشي أن يكون قوة عسكرية تعاود الكرة على روما فيما بعد(٢). وهناك تفسير آخر يرى أن ثيودريك الأول كان راغبًا في التعاون مع إيتيوس، وعلى استعداد لقبول أوامره في خروبه مع أتيلا الذي اعتبره عدوًّا للقوط الغربيين مثل روما تمامًا، وإن اختلف تورسموند في ذلك مع والده؛ حيث كان يرى أن الرومان يشكلون تهديدًا لأتيلا والهون بعد التفوق في شالون، ويرى تورسموند أنه من الأفضل للقوط أن تبقى القبائل الجرمانية على حدود الراين لتهديد روما؛ فلم يشأ أن يشارك والده والرومان في الحرب ضد الهون(٣).

ويذكر المؤرخون وعلى رأسهم -جوردن- أنه لو قدر لثيودريك البقاء على قيد الحياة لظل متعاونًا مع إيتيوس في مهاجمة

---

(1) Jordanes, The Goths, P. 61.

(2) Com. Med. Hist, Vol. 1, PP. 398-399.

(3) Rice, Op. cit, P. 26; Burr, Op. cit., Vol. 1, PP. 294-295.

أتيلا، إلى أن يتحقق النصر النهائي، كذلك فإن تورسموند الذي نادى به جيش القوط الغربيين ملكًا على الفور بمجرد التعرف على جثة والده كانت لديه الرغبة في مواصلة تحقيق المكاسب التي أحرزها، بيد أن إيتيوس اعترض على ذلك؛ إذ خشي إيتيوس من تحقيق نصر حاسم على أتيلا سوف يؤدي إلى تعرض الإمبراطورية لخطر القوط الغربيين بعد القضاء على تهديد الهون، حيث لم يكن في استطاعة الرومان الصمود أمام الجيش القوطي المنتصر؛ لذلك حذر إيتيوس ثورسموند من أنه ليس في استطاعته التأكد من تأييد كل رجال البلاط الملكي في تولوز، على الرغم من مناداة الجيش به ملكًا.

وعلى ذلك أشار عليه إيتيوس بالإسراع بالعودة إلى عاصمته قبل وصول نبأ وفاة والده إلى هناك خشية أن يغتصب أحد أخوته العرش، واعتبر تورسموند تلك النصيحة وجيهة، وقاد جيشه تجاه الجنوب، وبالفعل ثبت فيما بعد أن نصيحة إيتيوس لم تكن جوفاء، إذ استولى ثيودريك الثاني على العرش بعد أن قتل أخاه تورسموند بعد عامين اثنين فقط[1].

وهناك أسباب أخرى دفعت إيتيوس لوقف الحرب ضد الهون، ومنها أن إيتيوس لم يرغب في تدمير جيش الهون نهائيًّا حتى يستفيد من فرسانه كما كان سابقًا والاحتفاظ بهم كمرتزقة في الجيش الروماني، وخاصة أنهما كانوا يمتلكون مهارات عالية في الحرب، ورغب كذلك في الحصول على خيولهم المدربة تدريبًا عاليًا، وأصبح الدفاع عن الإمبراطورية بيد أعدائها، لا بيد جنودها من الرومان، حيث لا حيلة لبقاء روما دون البرابرة مما يدل على الضعف الذي بدأ

---

(١) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٥٠.

- Jordanes, The Goths, P. 61-65.

ينخر في عظام الإمبراطورية الرومانية، نتيجة للضربات المتلاحقة من الجرمان والهون(١).

ولقد أثبتت المعركة أنه لا يوجد أعداء دائمين ولا أصدقاء دائمين، ولكن يوجد مصالح مشتركة كانت سببًا في هذا التحالف الروماني الجرماني الضخم، فقد أطلق على معركة شالون معركة الشعوب -The Battle of The Nations- نظرًا لأن شعوبًا جرمانية مختلفة اشتركت فيها؛ فقد ضم جيش أتيلا الجيبيداي والقوط الشرقيين والسكيري والهيرولي والألطائية والبرجنديين الشماليين والفرنجة البريين، أما الجيش الروماني بقيادة إيتيوس فقد تألف من قوات الإمبراطورية والبريتون والسكسون والألان والقوط الغربيين والأرموريك والبرجنديين الجنوبيين والفرنجة البحريين، بالإضافة إلى حصول الفريقين على مساعدات من البلاد التي مروا بها، ولقد أنهت معركة شالون أسطورة الهون الذين لا يقهرون(٢).

وظل أتيلا لمدة يومين أو ثلاثة يفكر تفكيرًا عميقًا لمعرفة أسباب فشل العدو في استغلال النصر الذي أحرزه، ثم قاد رجاله وحلفاءه للعودة عبر نهر الراين. وفي المجر ظل يلعق جراحه حتى الصيف التالي، عندما قاد جيشًا آخر عبر بانونيا وعبر جبال الألب(٣).

وتعتبر هذه المعركة من المواقع الهامة والفاصلة في التاريخ، إذ أنقذت أوربا من وحشية البرابرة الهو، الذين ارتدوا عبر الراين في العام التالي وقاموا بغزو مفاجئ لإيطاليا(٤).

** ** **

---

(1) Oman, History of The Art of The World, PP. 21-22; Rice, Op. cit., PP. 26-27.

(2) Pirenne, A Hist. of Europe, PP. 29-30; Jones, The Decline of The Ancient World, PP. 80-81.

(٣) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٥١.

(4) Burry, op. cit, vol. p. 294.

الفصل الثالث

الوضع في الإمبراطورية بعد شالون

انتهت الجولة الأولى بين الرومان وحلفائهم والهون وحلفائهم بخسائر بشرية فادحة من الطرفين، وانسحب أتيلا من الميدان ووقف موقف المدافع، في حين انسحب زعيم القوط الغربيين تورسموند ومعه جيشه في اتجاه الجنوب، وكان تورسموند يأمل ألا تتوقف خصوم روما من الجرمان عن الهجوم عليها، حتى لا تتفرغ روما لمواجهة القوط الغربيين.

***

غزو إيطاليا:

ولم يترتب على فشل حملة أتيلا على بلاد الغال إضعاف روحه أو قوته أو سمعته، ففي الربيع التالي عاود أتيلا طلب يد الأميرة هونوريا وما ورثته من أموال وللمرة الثانية قوبل طلبه بالرفض والمراوغة، فما كان من ذلك العاشق الساخط إلا أن يبادر على الفور إلى القتال، فعبر جبال الألب وحاصر أكويليا -Aquilieia- في نهاية صيف ٤٥٢م بجيش ضخم من البرابرة.

وكان هؤلاء البرابرة يفتقرون إلى المهارة في أساليب وتنفيذ حصار منظم؛ لأن الحصار يتطلب بعض الإلمام بالفنون الميكانيكية، غير أن أتيلا استطاع أن يستخدم في تنفيذ أشق الأعمال وأخطرها آلافًا من الأسرى وسكان الأقاليم الذين كانوا يضحون بأرواحهم دون شفقة أو رحمة، ومن ثم استغل مهارة الصناع الرومان في تدمير

بلادهم، واستخدم في مهاجمة أسوار أكويليا عددًا كبيرًا من معدات الهدم والأبراج المتحركة، وآلات قذف الأحجار والسهام والنار، ولجأ ملك الهون أيضًا إلى استخدام الدوافع القوية، ودوافع الأمل والخوف والمنافسة والمصلحة لتحطيم الحاجز الوحيد الذي كان يعترض سبيل غزو إيطاليا[1].

وكانت مدينة أكويليا في ذلك الوقت من أغنى المدن البحرية على شاطئ الأدرياتيك، ومن أكثرها سكانًا وأعظمها قوة. وكان بها قوات مساعدة من القوط الذين يبدو أنهم عملوا من قبل تحت قيادة ملكين من أبناء جلدتهم، وهما الأريك وأنتالا، وعبث هذه القوات في المدينة الجريئة الباسلة، وكان مواطنوا المدينة لا يزالون يذكرون المقاومة المجيدة الظافرة التي بدأها أجدادهم في وجه بربري وحشي عنيد ألحق العار بجلال العرش الروماني، واستمر حصار أكويليا ثلاثة شهور دون أن يحقق هدفا، حتى اضطر أتيلا بعد نضوب مؤنه وتذمر قواته إلى التخلي عن مغامراته، فأصدر أوامره إلى قواته كارهًا بأن تحل خيامها في اليوم التالي وتبدأ تقهرها، ثم عاود حصار المدينة بخطة جديدة، واستطاع أن يفتح ثغرة كبيرة في ذلك الجزء من السور، واندفع الهون إلى الهجوم في ثورة عارمة لا تقاوم، وحطموا المدينة تحطيمًا جعل من المتعذر على الجيل التالي أن يكشف أطلال أكويليا وخرائبها، وبعد ذلك العقاب الرهيب مضي أتيلا في تقدمه مارًّا بمدائن التينوم وكونكورديا وبادوا، وحولها جميعًا إلى كومات من الأحجار والرماد، وكذلك تعرضت المدن الداخلية وهي: فيشنزا

---

(١) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـ١٩٠، سعيد عاشور: المرجع السابق، صـ٩١.

- Hadas, Op. cit., P. 244.

وفيرونا -Verona- وبرجامو -Bergamo- لأعمال القسوة والنهب التي قام بها الهون(١).

أما ميلان Milan وبافيا Puvia، فقد خضعتا دون مقاومة لخسارة ثروتهما، وهللتا للشفقة غير العادية التي عاملها بها العدو، والتي أنقذت المباني العامة والخاصة في المدينة من الحريق، وأبقت على حياة جماهير الأسرى.

ولسنا نثق كثيرًا فيما تناقلته الألسن عما جرى لمدينة كوموم أو تروين أو مودينا، غير أن تلك الشائعات تتفق مع أدلة أكثر دقة، وتثبت أن أتيلا اجتاح سهول لمباريا الحديثة الغنية التي يشطرها نهر البو، وتحدها جبال الألب والأبنين، وعندما استولى على قصر ميلان استشعر الدهشة والإساءة عندما رأى صورة تمثل القياصرة جلوسًا على عروشهم، والملوك السكوذيين منبطحين تحت أقدامهم. وقد صب أتيلا على ذلك الأثر الذي يمثل الغزو الروماني انتقامًا بريئًا بارعًا، ذلك أنه أمر أحد الرسامين أن يعكس الأشكال والأوضاع، فرسم الأباطرة على جسم الصورة نفسها وهم يتقدمون في وضع التوسل والتضرع لإفراغ أكياس ذهب الجزية المفروضة عليهم أمام عرش العاهل السكوزي(٢).

وهناك قول مأثور يتناسب مع ما اتصف به أتيلا من صلف وحشي، وهو أن الأرض التي وطئها لم ينبت فيها بعد ذلك عشب، وباقتراب هذا البربري القوي المخيف من روما، كان هناك فزع مريع وشامل في كل أنحاء إيطاليا، وكان إيتيوس وحده هو الذي لم يتملكه

---

(١) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـ١٩٠-١٩١.

- Hoyt & Chodorow, Europe in The Middle Ages, P. 68.

(٢) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـ١٩١، جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٥١.

- Boak, Op. cit., PP. 383-385.

الخوف، غير أنه كان من المستحيل عليــه أن يحقــق بمفــرده دون مساعدة أية مآثر عسكرية جديرة بشهرته السابقة، فقد رفض البرابــرة الذين سبق لهم الدفاع عن بلاد الغال أن يبادروا إلى إنقاذ إيطاليا، كما أن النجدات التي وعد بها الإمبراطور الشرقي فالنتيان كانــت بعيــدة ومشكوكًا فيها. وبما أن إيتيوس على رأس قواته الوطنية كان لا يزال صامدًا في الميدان يناوش أتيلا ويؤخر تقدمه، فإنه لم يظهــر بمظهــر العظمة الحقيقية في أي وقت مضى أكثر من هذا الوقت الــذي كــان مسلكه فيه موضع التأنيب من شعب جاهل جاحد للجميل. ولو أن عقل فالنتيان كان قابلا للتأثر بأية أحاسيس كريمة، لإختار مثل هذا القائــد مثالا يحذوه ومرشدًا يسترشد به، غير أنه فــرض صــوت الحــرب، وكشف انسحابه السريع من رافنا إلى روما، من حصــن منيــع إلــى عاصمة مكشوفة، وبيَّت النية على مغادرة إيطاليــا بمجــرد اقتــراب الخطر من شخصه الإمبراطوري، واتخذ إمبراطور الغرب من مجلس السناتور وشعب روما قرارًا أكثر نفعًا وأعظم جدوى، وهــو إرســال وفد رسمي يسترحم أتيلا ويهدئ من غضبه(١).

وكان على رأس هذا الوفد الذي أنقذ روما من أتــيلا والهــون البابا ليو الأول العظيم (٤٤٠-٤٦١م) الذي خرج بنفسه وقابل أتــيلا في موقع بالقرب من روما عند بحيرة جاردا Lake Garda.

وقد عبرت ريشة الفنان رفائيل -Raphael- عن ذلك بلوحــة تحمل عنوان "البابا ليو الكبير وأتيلا" حيــث يظهــر البابــا محاطًــا بالكرادلة وبعض رجال الكنيسة الآخرين في مواجهــة ملــك الهــون

---

(١) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـــ١٩٣-١٩٤.

- Jordanes, The Goths, P. 61; Vasiliev, Op. cit, P. 105; Com. Med. Hist. Vol. 1, P. 266.

وجماعته من المحاربين، كما يظهر الدخان والدمار الذي خلفه أتــيلا الذي كان يتوعد به روما، وامتلأت خلفية اللوحــة بــبعض مبانيهــا المشهورة، بما فيها مدرج روما القــديم الكولوســيوم Colosseum- وفي الصورة تظهر يد ليو مرفوعة، ويبدو بوضوح أنه يــأمر ملــك الهون بالعودة من حيث أتى.

على أن أروع الشخصيات التي ظهرت في الصــورة كانــت شخصيتي: بطرس الرسول وبولس الرسول وهما يحومان في الســماء فوق البابا ليو، وفي أيديهما سيفان يهددان أتيلا بالموت إذا ما حاول أن يتحدى البابا ليو وأوامره. والعبرة من هذه الصورة أن أتيلا ارتد على أعقابه متأثرًا؛ إما بالموقف الصلب الذي سلكه الحبر المقدس أو بسيفي الرسولين، فانسحب ومعه جيشه إلى المجر(١).

وإذا تساءلنا عن مدى صحة الأحداث المترابطة مــع الحيــاة الواقعية المعبرة عن الماضي والتي تكون عرضةً لرفضها، فإن بهــذه القصة شيئًا من الصحة، إذ أن البابا ليو الكبير قابل أتيلا بالفعل، ومن المحتمل أن هذه المقابلة تمت في أواخر صيف عام ٤٥٢م على بعــد حوالي ستين ميلا شمالي روما بالقرب من شاطئ بحيرة جاردا، حيث كان ملك الهون معسكرًا، ولم يرافق ليو في هذه المهمــة أحــد مــن الكرادلة -إذ لم يتم التعرف عليهم وعلى قبعاتهم الحمراء إلا بعد ذلــك بكثير- وإنما رافقه اثنان من أشهر رجال السناتو المشهوريين همــا: أفينوس -Avienus- وكان حسن الطلعة واسع الحيلة، ومن ثم كــان جديرًا بالتفاوض على مصلحة عامة أو خاصة، ورافقه في هذه المهمة

---

(١) جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـــ٢٣.

- Lot, The end ot the Ancient world, PP. 209-212; Com. Med. Hist., Vol. 1, PP. 266-267.

زميله ترايجيتيوس -Trigetius- الذي مارس أعمـــال الـــوالي الأول البريتوري لإيطاليا، وقبل البابا ليو أسقف رومـــا أن يعـــرض حياتـــه للخطر في سبيل وسلامة رعيته، وقد ظهرت عبقرية هذا الأسقف في أوقات المحن العامة، واستحق أن يسمى باسم "العظم أو الكبير" بفضل تلك الغيرة الناجحة التي جاهد بها في إقرار آرائه وتوكيد سلطته باسم العقيدة الأرثوذكسية والنظام الكنسي، كما أن طبيعة مباحثاتهم مع أتيلا ليست معروفة، ولم يذكر البابا شيئًا عن المحادثة، كما ذكر المـــؤرخ المسيحي بروسبير -Prosper- الذي كتب تقريرًا عما حدث بعد هـــذه الحادثة بسنوات قلائل يقول: أما الرسولان والسيف فقد أضيفوا فيمـــا بعد لزخرفة أحداث القصة[1].

وقد مُثل سفراء الرومان أمام أتيلا في خيمته، واستمع العاهـــل المتبربر إلى الوفد الروماني بانتباه مشجع، بـــل وفـــي شـــيء مـــن الاحترام، واستطاع الوفد أن يشتري إنقاذ إيطاليا بفدية ضخمة وهـــي أن يزوجوه من الأميرة هونوريا، وسهلت حالـــة جـــيش أتـــيلا عقـــد المعاهدة والإسراع بالتقهقر؛ ذلك أن الثراء الذي حققه الجنود والكسل الذي بعثه فيهم مناخ إيطاليا الدافئ كان سـببًا فـــي هبـــوط روحهـــم العسكرية. فرعاة الشمال كان غذاؤهم العادي يتألف من اللبن واللحـــم النيئ انغمسوا دون حدود في شراب النبيـــذ وأكـــل الخبـــز واللحـــوم المطهوة المتبلة، فسرت بينهم الأمراض وانتقمت إلى حد ما للأضرار التي ألحقوها بالإيطاليين.

---

(١) يف داهموس: المرجع السابق، صـــ٢٣، إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـــ١٩٤.

- Fliche, Lachretiente Medieval, PP. 24-25; Hearder & Waley; A Hist of Italy, P.27.

وعندما أعلن أتيلا عن عزمه توجيه جيوشه الظافرة إلى أبواب روما، حذره أصدقاؤه وأعداؤه سواء بسواء من مغبة هذا العمل قائلين إن الأريك من قبله لم يعمر طويلا بعد أن غزا مدينة روما الخالدة، ورغم أن عقله كان فوق مستوى الأخطار الحقيقية ولا يأبه لها، إلا أن المخاوف الخيالية هاجمته، ولم يستطيع التخلص من تأثير الخرافات التي كثيرًا ما كانت في خدمة خططه وأعماله، وكان لفصاحة الأسقف المؤثرة، وطلعته المهيبة، وأرديته الكهنوتية أثرها في بعث الاحترام والإجلال في نفس أتيلا نحو الأب الروحي للمسيحيين(١).

ورغم عدم ذكر الحوار الذي دار بين أتيلا والبابا إلا أنه يبدو أن أتيلا استجاب على الفور لرغبة البابا وقرر الرحيل، وربما كان ذلك بسبب الأساطير التي ذكرت أن شبحي القديس بطرس وبولس ظهرا للقائد أتيلا وهدداه بالموت إذا رفض رجاء أسقف روما، ولاشك أن سلامة روما تستحق توسط المخلوقات السماوية، والحقيقة أن هذا اللقاء أضفى عليه الطابع المقدس(٢).

ويذكر المؤرخون أن أتيلا لم ينسحب خوفًا من البابا والقديس بطرس وبولس أو انتقام السماء؛ لأنه كان وثنيًا لا يؤمن بأي ديانات، والمرجح أنه انسحب لفشله الذريع في معركة شالون والهزيمة التي لقيها من القوات الرومانية المتحالفة. ويقال كذلك أن انسحابه كان بسبب مرض الطاعون الذي ألم بجنوده، وانتشار العديد من الأوبئة بينهم، بالإضافة إلى حالة الملك واليأس التي سيطرت عليهم بسبب طول الفترة التي مكثوها بدون حرب، واعترض حلفاؤه على المكوث أكثر من ذلك، وكذلك قلة المؤن والعتاد، وكذلك خروج الإمبراطور

---

(١) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـ١٩٤.

- Jordanes, The Goths, P. 61.

(2) Com. Med. Hist, Vol.1, PP. 266-267; Vasiliev, Op. cit., P. 105.

البيزنطي مارقيان لفك الحصار عن روما بجيوشه، حتى أن أتيلا اضطر إلى تسريح أعداد كبيرة من جيشه لصعوبة التموين، كل هذه الأسباب أجبرت أتيلا على الانسحاب من غزو روما(١).

ولا يزال المؤرخون -إلى الآن- يناقشون آثار المعركة، ففي الوقت الذي لم تكن هناك معركة حاسمة، حيث تجنب أتيلا الهزيمة، وأبقى جيشه سليمًا، إلا أن هذه المعركة لها أهمية كبرى، فقد أ شارت إلى ذروة القوة التي وصل إليها الهون، ولقد استمر فشلهم في احتلال أوربا لعوامل أهمها: الدين والحضارة والمسيحية السائدة فيها، وعندما فشل الجيش الهوني في الاستيلاء على روما في السنة التالية، ازدادت قوة البابوية والإمبراطورية بشكل كبير وطغت الثقافة والديانة الكاثوليكية على أوربا الغربية لألف سنة قادمة(٢).

***

موت أتيلا:

وقبل أن يجلو ملك الهون عن إيطاليا، هدد بأن يعود إليها بصورة أشد هولا وقسوة إذا لم تسلم الأميرة هونوريا إلى سفرائه في حدود الفترة المتفق عليها في المعاهدة، وخفف أتيلا من قلقه العاطفي بأن أضاف إلى قائمة زوجاته فتاة جميلة جدًا تدعى الديكو Ildico(*)، واحتفل بزواجهما وسط مظاهر العظمة والأفراح البربرية في قصره الخشبي فيما وراء الدانوب، وتغلب الخمر والنوم على الملك فانسحب

---

(1) Lot, The end of Ancient, PP. 208-214; Gordon, PP. 95-97.

(٢) مايكل لاننغ: المرجع السابق، صـ٢٢٥.

(*) يذكر أن عروس الجرمانية الجميلة كانت تدعى كريمهيلد - Kriehild - كما تسميها ملحمة نيبيلونج -Nibelungenlied- التي وصلتنا في مخطوطة يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر الميلادي. انظر في ذلك:

- Hoyt & Chodorow, Europe in The Middle Ages, P. 68.

من الوليمة في وقت متأخر إلى فراش الزوجية. وظل أتباعه يحترمون ملذاته أو راحته طوال اليوم التالي، حتى أثار الصمت غير العادي مخاوفهم وشكوكهم، وبعد أن حاولوا دون جدوى إيقاظ أتيلا بالصيحات العالية المتكررة اقتحموا المخدع الملكي. وهناك وجدوا العروس الواجفة جالسة إلى جوار الفراش، وقد أخفت وجهها بنقابها، وهي ترثي للخطر المحيق بها، وتندب موت الملك الذي وافته المنية خلال الليل؛ ذلك أن أحد شرايينه قد انفجر فجأة، وبما أنه كان مستلقيًا على ظهره، فقد احتنق بفعل نزيف الدم الذي لم يستطع النفاذ من خياشيمه واندفع إلى رئته ومعدته[1].

وقد عرض جثمانه بصورة مهيبة وسط السهل وتحت مظلة حريرية، وأخذت الكتائب المختارة من الهون تدور حوله دورات منتظمة، وهي تنشد نشيدًا جنائزيًّا لذكرى البطل الذي كان عظيمًا في حياته منيعًا في موته، والدًا لشعبه، نقمة على أعدائه ومصدر فزع للعالم كله، وتمسك البرابرة بعاداتهم الوطنية فقطعوا أجزاء من شعورهم وجرحوا وجوههم بجراح قبيحة المنظر، وانتحبوا على زعيمهم الشجاع نحيبًا يستحقه، لا بدموع النساء، بل بدماء المحاربين، ووضعوا رفات أتيلا داخل ثلاث توابيت من الذهب والفضة والحديد، ثم دفنت أثناء الليل سرًّا، وألقيت في قبره أسلاب الشعوب التي قهرها. أما الأسرى الذين حفروا أرض القبر فقد ذبحوا بصورة وحشية، وبدأ رجال الهون أنفسهم الذين غرقوا في مثل ذلك الحزن الشديد يأكلون ويشربون ويستمتعون بصورة منحلة مسفه حول قبر مليكهم الذي مات لتوه.

---

(١) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـ١٩٥، جوزيف داهموس: المرجع السابق، صـ٥٢، مايكل لي لاننغ، صـ٢٢٥.

- Moss, The Birth of The Middle Ages, PP. 47-52.

ويذكر –جيبون– أنه في الليلة التي مات فيها أتيلا شاهد الإمبراطور الشرقي مرقيان في حلمه قوس أتيلا محطمًا، وقد تدل هذه الرواية على أن طيف ذلك الزعيم العظيم قلما كان يفارق ذهن الإمبراطور الروماني(١).

وبعد موت أتيلا العظيم تمزقت إمبراطورية الهون، وفقدت دعاماتها القوية بوفاة أتيلا، ذلك أن أبناءه سرعان ما اقتسموا السلطة، وخاصة وأن أعدادهم كانت كبيرة، فخرجت الشعوب التي كانت تدين لهم بالولاء عن سلطتهم، فنادت هذه الشعوب مثل الجبيداي والقوط الشرقيين والروجيين والهيرولي والسكيري بالاستقلال والخروج عن تبعية الهون، وخاصة بعد أن أحسوا بالضعف والهوان الذي وصل له الهون(٢).

وأكدت الثورة التي قوضت إمبراطورية الهون بعد موت أتيلا شهرة ذلك الرجل؛ لأن عبقريته وحدها هي التي كانت دعامة ذلك الكيان المفكك الضخم، وبعد موته تطلع أجرأ زعماء القبائل إلى منصب الملوك، وأبى أقوى الملوك أن يعترفوا بشخص يفوقهم مركزًا، أما الأبناء الكثيرون الذين أنجبهم الملك الراحل من مختلف الأمهات، فقد انقسموا على أنفسهم وتنازعوا السيادة والسيطرة على شعوب ألمانيا وسكوزيا كما لو كانوا يتنازعون إرثًا خاصًا. وأحس أرادريك الشجاع بعار ذلك الانقسام المزري وتجلت له صورته، ومن ثم فإن رعاياه من قبائل الجيبيداي المحاربة والقوط الشرقيين، تحت قيادة ثلاثة أشقاء شجعان، استحثوا خلفاءهم على تأييد حقوق الحرية والملكية، وحدث صدام دموي حاسم على ضفاف نهر نيتاد Nedtad–

(١) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـ١٩٥.

(2) Baker, E, Italy and The West, 410-476. in Com. Med. Hist, Vol.1, Cambridge, 1975, P. 420.

في إقليم باتونيا تقابلت فيه أو تكاتفت رماح الجيبيداي، وسيوف القوط، وسهام الهون، ومشاه السويفي، والأسلحة الخفيفة التي استخدمتها قبائل الهيرولي، والأسلحة الثقيلة التي جاءت بها قبائل الألاني، واقترن انتصار أرادريك بمقتل ثلاثين ألفًا من أعدائه.

وقد فقد إلاك -Ellac- أكبر أبناء أتيلا حياته وتاجه في معركة نيتاد المشهورة، وكانت شجاعته البارعة قد رفعته إلى عرش قبيلة أكتزيز Actazires- وهو شعب سكوزي كان قد أخضعه.

ولاشك في أن والده الذي أحب ما اتصف به ابنه من صفات سامية كان يغبطه على موته، لو أنه كان حيا[1].

أما أخوه دنجيزيش -Dengizich- مع جيش من الهون كان لا يزال قويًّا في القتال والتدمير، فقد احتفظ بمواقعه أكثر من خمسة عشر عامًا على ضفاف نهر الدانوب، أما قصر أتيلا وبلاد داكيا القديمة، من جبال الكربات إلى البحر الأسود، فقد أصبحت مركز دولة جديدة أقامها أرادريك ملك الجيبيداي، واحتل القوط الشرقيون بلاد بونونيا المقهورة من فينا إلى سرميوم، ووزعت الأرض في غير نظام على القبائل التي حافظت على حريتها الوطنية بمثل تلك الشجاعة حسب قوة كل منهما.

أما مملكة دنجيزيش فقد أحاط بها وضيق عليها عدد كبير من عبيد والده؛ ولهذا انحصرت في دائرة عرباته، ودفعته شجاعته اليائسة إلى غزو الإمبراطورية الشرقية، ولكنه قتل في المعركة وعرضت رأسه بصورة شائنة في حلبة السباق، فكانت مشهدًا مرضيًا لشعب القسطنطينية[2].

---

(١) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـ١٩٦.

- Lot, The end of The Ancient world, P. 288.

(٢) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـ١٩٦. =

وكان أتيلا يعتقد -عن رغبة أو عن إيمـــان بالخرافـــات- أن أرناك -Arnac- أصغر أولاده، وهو الذي حاول التخفيف من تهـــور أخيه دنجيزيش أكثر ملائمة لحالة التدهور التي بلغها الهـــون، ولهـــذا انسحب أرناك مع القبائل التابعة له إلى قلب إقليم سكوزيا الصـــغرى، وسرعان ما طغى عليهم هناك سيل من البرابرة الجدد الـــذين ســـلكوا نفس الطريق الذي اكتشفه أجدادهم من قبل، وهؤلاء هم قبائل الجيوجن أو الأفار التي تقطن شواطئ المحيط، حسبما يقول كتـــاب الإغريـــق، والتي تغلبت على القبائل المجاورة.

وأخيرًا، جاءت قبائل الإيجور الشمالية من إقليم سيبيريا البـــارد التي تنتج أجود أنواع الفراء، وانتشرت فوق أرجاء الصـــحراء حتـــى مدخل بويستنيز وقزوين، وقضت في نهاية الأمر علـــى إمبراطوريـــة الهون(١).

***

موت إيتيوس وفالنتيان الثالث:

بعد البطولات الحربية التي قام بها القائد إيتيـــوس مـــن أجـــل الإمبراطورية، فقد أصبح هو الحاكم المطلق للإمبراطورية الغربيـــة، وكان يتميز بالمهارة الحربية الرائعة والحصافة السياسـية التـــي لـــم يناظره فيها أحد، ولشعبيته كان يمكنه الوصول للسلطة لو أراد، ولكنه اكتفى بممارسة السلطة الفعلية في الإمبراطورية علـــى الإمبراطـــور فالنتيان الثالث، فقد حمى الإمبراطورية لأكثر من عشرين عامًا مـــن القبائل الجرمانية التي كانت تهدد الكيان الروماني(٢).

= - Fliche, Lachretiente Medieval, P. 24.

(١) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـــ١٩٦-١٩٧.

- Lot, The end of the Ancient world, PP. 288-289.

(2) Edit, The Hist. History, Vol. VI, P. 572.

كان من الممكن للإمبراطورية الغربية أن تعيش في سلام مثل الإمبراطورية الشرقية التي اكتسبت صداقة البرابرة، ولكن إمبراطور الغرب فالنتيان الضعيف المنحل قرر التخلص من القائد إيتيوس؛ لأن إيتيوس طمع في أن يزوج ابنه جودنتيوس إلى بنت فالنتيان، وبذلك يتولى ابنه حكم الإمبراطورية، وتظاهر الإمبراطور فالنتيان بالموافقة؛ لأنه كان يكره إيتيوس ويحقد عليه بسبب شهرته بين الجميع كمصدر فزع للبرابرة واحترام للرومان، وفي نهاية عام ٤٥٤م استدرج الإمبراطور إيتيوس إلى قصره بحجة مناقشة أمر الزواج[١].

ويبدو أن إيتيوس كان يسلك سلوك التعالي والرعونة بقدرته وخدماته للإمبراطورية، وربما لشعوره بأنه بريء مما قال عنه، وقد أساء النبيل إلى مليكه بتصريح عدائي، وضخم الإساءة بأن أجبر الإمبراطور على إقرار معاهدة توفيق وتحالف بقسم رسمي، وكذلك كان يصرح بشكوكه ويهمل في الحفاظ على سلامته، ودفعته ثقته الباطلة في أن العدو الذي يحتقره لا يستطيع حتى أن يرتكب جرمًا متسمًا بالرجولة، إلى المغامرة بدخول القصر الإمبراطوري في روما، وكان ذلك تهورًا من جانبه، وكان يتعجل زواج ابنه في حماس مشوب بشيء من التطرف، واستل سيفه –وكان أول سيف يستله في حياته– وطعن به صدر القائد الذي أنقذ إمبراطوريته، وتدافع الخصيان ورجال حاشيته في طموح لتقليد مولاهم، وخر إيتيوس على الأرض صريعًا أمام الملك، وهو مثخن بمئات الجراح.

وفي اللحظة عينها قتل بوثيوس -Boethius- النوالي البريتوري، وقبل أن يعرف شيء عما حدث استدعى أهم أصدقاء النبيل إلى القصر، وقتل كل واحد منهم على حده[٢].

---

(1) Hadgkin, Italy and Her Invaders, Vol. III, P. 197.

(٢) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـ١٩٨.

ولقد أخطأ الإمبراطور فالنتيان بمقتل قائده العظيم الذي حمى العرش والإمبراطورية من غزوات البرابرة، ويرجح المؤرخون أن سبب إقدامه على قتل قائده هو اطمئنان الإمبراطور الضعيف على وضع الإمبراطورية فهي لم تعد في حاجة إلى خدمات إيتيوس بعد زوال خطر الهون ومقتل قائدهم أتيلا عام ٤٥٣م(١).

أما ذلك العمل الرهيب الفظيع فقد خففوا من وقعه بقولهم إنه كان أمرًا تحتمه العدالة أو الضرورة، وأبلغه الإمبراطور على الفور إلى جنوده ورعيته وحلفائه، وأسفت الجماعات التي كانت عدوه لإيتيوس أو لا تعرفه أسفًا شديدًا لذلك المصير غير اللائق ببطل.

أما البرابرة الذين كانوا في خدمته، فقد اصطنعوا إخفاء حزنهم وسخطهم، وانقلب الاحتقار العام الذي كانوا يشعرون به نحو فالنتيان إلى كراهية شاملة، غير أن مثل هذه الأحاسيس قلما تنفذ من أسوار القصر وتصل إلى أسماع الملوك، ورغم ذلك فقد ارتبك الإمبراطور عندما سأل أحد الرومان عن رأيه فيما حدث دون أن يتورع عن استجداء استحسانه له، فأجاب في صدق وإخلاص قائلا:

"إني أجهل يا مولاي ما كان لديك من دوافع وإثارات، غير أني أعرف شيئا واحدًا، وهو أنك تصرفت كرجل يقطع يده اليمنى بيده اليسرى"(٢).

والحقيقة أن الإمبراطورية الرومانية خسرت خسارة فادحة بمقتل إيتيوس، وقد علق المؤرخون على ذلك بقولهم: "لقد زال خلاص الإمبراطورية الرومانية بزوال القائد العظيم إيتيوس(٣). وقال عنه

---

(1) Moss, Op. cit, PP. 47-50; Boak, Op. cit, P. 284; Simons, The Birth of Europe, P. 40.

(٢) جيبون: المرجع السابق، صـ١٩٨.

(3) Pirenn, History of Europe From the invasions to the 16 century, London, 1936, P. 30.

المؤرخ –هدجكن–: "لقد كان إيتيوس آخر الرجال الرومان الحقيقيين"[1].

ويبدو أن الترف الذي كان سائدًا في روما جذب الإمبراطور إليها وجعله يكرر زياراته لها ويطيل المكوث فيها، وترتب على ذلك أنه أصبح موضع الاحتقار هناك أكثر من أي جزء آخر من بلاده.

وثمة روح جمهورية بدأت تسري في السناتو دون أن يحس بها أحد؛ لأن حكومته الضعيفة أصبحت في حاجة إلى سند من سلطة المجلس بل ومن موارده، وأساء كبريا الملجس مسلك الجلاء الذي يسلكه ملك وراثي، كما أن ملذات فالنتيان كانت مصدر قلق الأسرات النبيلة وتسيء إلى سمعتها.

ولم يكن منبت الإمبراطورة يودوكسيا زوجته بأقل من منبت زوجها الإمبراطور، كما أن جمالها وحبها العطوف كانا يستحقان منه أن يبادلها حبًّا بحب[2]، ولكن حياة الترف والملذات التي انغمس فيها عن طريق إيتيوس لإبعاده عن شئون الحكم، وكذلك تربيته التي أنشأتها أمه كانت غير سليمة، وفيها الكثير من التدليل وعدم تحمل المسئولية، وأثرت على سلوكه، فامتلأ قلبه بالحقد والشر، وقرب إليه السحرة والمنجمين، وأبعد عنه أصحاب الرأي القويم، وقام بمطاردة النسوة المتزوجات ومطارحتهن الغرام والفراش، رغم أن زوجته كانت رائعة الجمال[3].

غير أن ذلك الزوج المتقلب أطاح بهذا الحب في غرامياته الخفية غير الشرعية، وحدث أن بترونيوس مكسيموس، وهو عضو غني من أعضاء السناتو من أسرة أنيكيوس قد شغل منصب القنصل

---

(1) Hodgkin, Op. cit, P. 120-133.

(٢) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـ١٩٨.

(3) Hadas, Op. cit, P. 238.

مرتين، وكان له زوجة جميلة وطاهرة، وقاومت الزوجة غرام الإمبراطور مقاومة عنيدة لم يكن لها من أثر سوى إثارة رغباته وشهواته، فصمم على تحقيق رذائل البلاط، وحدث أن الإمبراطور كسب من مكسيموس مبلغًا من المال، إما بالحظ أو بالحيلة، فأخذ منه خاتمه بصورة غير لائقة ضمانًا للدين، ثم أرسله مع رسول أمين إلى زوجته مع أمر باسم زوجها بأن تبادر على الفور لمقابلة الإمبراطور يودوكسيا، ولم ترتب زوجة مكسيموس في الأمر، ونقلت في محفتها إلى القصر الإمبراطوري، وقادها رسل العاشق المتلهف إلى مخدع بعيد منفرد، وهناك حطم الإمبراطور قواعد الضيافة دون شفقة أو رحمة، وعندما عادت إلى المنزل انهمرت دموعها، وقصت على زوجها بلواها، وأخذت تؤنبه تأنيبًا مرًّا إذا اعتبرته شريكًا في ذلك العار الذي لحق بها، كل ذلك أثار في مكسيموس رغبة الانتقام العادل، وضاعف تلك الرغبة ما كان يجول في نفسه من طمع في العرش، وكان من المعقول أن يتطلع إلى ذلك المنصب الذي يشغله منافس مكروه محتقر، وذلك عن طريق انتخاب حر يجريه السناتو الروماني، واعتقد الإمبراطور أن كل صدر بشري هو كصدره، خلو من الصداقة وعرفان الجميل، فقبل ضمن حراسه -دون تبصر وروية- عددًا من خدم إيتيوس وأتباعه(١).

وقد قام اثنان من أنصار إيتيوس من أصل بربري، ويقال إنهما من القوط وهما: تروستلا Traustila زوج ابنة القتيل، وأبتيلا - Optila حامل درع إيتيوس، وكان الاثنان ينتظران الفرصة للإنتقام لسيدهما، وسرعان ما حانت الفرصة. فبينما كان الإمبراطور يستمتع في ساحة "مارس" ببعض مشاهد الألعاب العسكرية، هجما عليه هذان

---

(١) جيبون: المرجع السابق، صـ١٩٩.

- Edit, The Hist. History, P. 580.

الاثنان بسيوفهما المسلولة وطعنا الإمبراطور في قلبه دون أقل مقاومة من حاشيته التي يبدو أنها فرحت لموت الطاغية(١).

ولقد قلد هذا الإمبراطور في صدق وأمانة ذلك الضعف الوراثي الذي اتسم به ابن عمه وعماه دون أن يرث صفات الرقة والنقاء والبراءة التي تخفف من افتقار شخصياتهم إلى الجرأة والكفاية، ولم يكن مستطاعًا أن يلتمس له العذر مثلما يلتمس لغيرهم، فقد كان كثير الأهواء خلو من الفضائل، بل إن ديانته كانت موضع شك، ومع أنه لم ينحرف مطلقًا إلى سبيل الهرطقة، إلا أنه جلب الفضيحة والعار إلى أتقياء المسيحيين بتعلقه بفنون السحر والكهانة الدنسة(٢).

وبعد مقتل فالنتيان وقعت الإمبراطورية في يد سلسلة من العسكريين الطغاة، وكان بيدهم الحل والعقد في الإمبراطورية، وهم الذين عينوا مكسيموس إمبراطورًا خلفًا لفالنتيان الثالث، وقد عين مكسيموس القائد أفيتوس قائدًا عامًا للجيش الروماني، وكان يتمتع بشخصية حربية وسياسية بارزة، وتمتع كذلك بقدر من الكفاءة والمقدرة العسكرية، ونبل الأخلاق وعراقة المنبت(٣)، ورغم أن الإمبراطور مكسيموس لم يحكم سوى ثلاثة شهور فقط، فإن أفيتوس نهض بما عهد إليه، ونجح في طرد القبائل البربرية من منطقة الراين الأدنى، وقام بزيارة بلاط القوط الغربيين في تولوز، وعقد معهم تحالفًا، ووصلت إليه الأنباء بمقتل الإمبراطور ماكسيموس والتمثيل بجثته وإلقائها في نهر التيبر(٤).

---

(1) Hodgkein, Op. cit, PP. 197-198; Edit, The Hist. History, P. 602.

(٢) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـ١٩٩.

(3) Moss, Op. cit., PP. 57-60; Hodgkin, Op. cit., PP. 198-200.

(4) Hodgkin, Op. cit., PP. 203-205, Villari, Op. cit., P. 125.

وبعد موت مكسيموس أصبح العرش الإمبراطوري شاغرًا، وفكر القائد أفيتوس أن يتولى العرش دون إراقة دماء، وأظهر له القوط استعدادهم لمساعدته على الوصول للعرش، وقال له قائدهم ثيودريك: "إذا رغب القائد العام انقاذ الإمبراطورية عليه تولي العرش".

وتم انتخاب أفيتوس الغالي إمبراطورًا على الرومان في التاسع من يوليه عام ٤٥٥م، وأصبح الإمبراطور ضيعة القوط الغربيين، وسرعان ما توجه إلى إيطاليا، وكان لابد من موافقة إمبراطور الشرق مارقيان، والذي وافق لأن موافقته كانت شكلية[١].

ولما كان أفيتوس يدين بعرشه للقوط الغربيين، وكان هؤلاء يطمعون في توسيع ممتلكاتهم في أسبانيا، حيث يعمل السويف على مد حدود مملكتهم، وذلك بالاستيلاء التدريجي على ما بقي للرومان في أسبانيا من أملاك، فقد انتهز ثيودريك القوطي فرصة استغاثة أهل الولايات الرومانية في أسبانيا بالإمبراطور أفيتوس، لينقذهم من خطر السويف، وعرض خدماته لرعاية المصالح الرومانية تنفيذًا لعقد التحالف بينهم، وبعث ثيودريك بإنذار عنيف إلى ركياريوس -Rechiarius- ملك السويف يتوعده بالدمار إن أقدم على مهاجمة الأملاك الرومانية، فأجابه الملك بإنذار من قبله متحديًا قوة القوط، ومما جاء في الإنذار أنه سوف لا يقف إلا إذا اقتحم أسوار تولوز -عاصمة القوط الغربيين- وجاء هذا التحدي تبريرًا كافيًا لتحرك القوط على الفور، فعبروا البرانس وقضوا على مملكة السويف، ودخلوا عاصمتهم برغش -Bracara- قرب نهاية عام ٤٥٦م[٢].

---

(1) Bradley, The Goths, P. 115; Hodgkin, Op. cit., PP. 375-383; Edit, Hist. History, P. 603.

(٢) إبراهيم علي طرخان: نهاية الإمبراطورية في الغرب عام ٤٧٦، صـ٧٦. =

وأثناء هذه الأحداث وصلت الأخبار إلى ثيودريك بعزل الإمبراطور، فشعر بخيبة أمل في صنيعته، وكان الإمبراطور منغمس في ملذاته واتهم بسوء السيرة، وأجبره السناتو على تغيير محل إقامته من راڤنا إلى روما، واستعمل السناتو حقه الدستوري في عزل أفيتوس بمساعدة القائد البربري المسئول عن حماية إيطاليا كونت ريكمر – Ricemer[(١)].

وكان الإمبراطور أفيتوس قد بلغ الستين من عمره عام ٤٥٦م، ولم يعد يحتمل أعباء السلطة والحكم، فركن إلى الهدوء والراحة، واقترن حكمه القصير بمجاعة طاحنة حلت بروما، فزادت كراهية الشعب له، وطرد حرسه من القوط الغربيين بسبب قلة المال، وعدم حصولهم على أجورهم، وانتزع النحاس من المباني وخلط العملة وتدهورت أحوال روما الاقتصادية[(٢)].

وعندما علم بهذه الأحداث القائد ريكمر عاد على الفور وقاد التمرد ضد أفيتوس، ومعه القائد ماجوريان -Majorianus-، وقبض ريكمر على أفيتوس، واضطر إلى التنازل عن العرش، وقرر السناتو إعدامه، ولكنه هرب لحرصه الشديد للوصول إلى كنوزه وثروته المحفوظة في إحدى الكنائس في أوڤرني، وكان أمله ضعيف في الحصول على مساعدة القوط الغربيين لاسترداد عرشه بعدما تخلوا

= - Hodgkin, Op. cit., PP. 388-398; Bradley, Op. cit; PP. 116-117.

(١) ريكمر: ولد من أب سويفي وأم قوطية هي ابنة واليا ملك القوط الغربيين، وله أخت متزوجة من ملك برجنديا، وعلت شهرته بسبب توفيقاته الحربية، ودفاعه عن إيطاليا ضد الوندال، وكان يمقت أفيتوس، ولكنه ظل مخلصًا له، ومع أنه قوطي من ناحية الأم، وسويفي من ناحية الأب، لم يرض عما ألحقه القوط بالسويف في أسبانيا.

أنظر في ذلك:

- إبراهيم علي طرخان، نهاية الإمبراطورية في الغرب، صـ٧٦.
- Hodgkin, Op. cit., P. 391.

(2) Hodgkin, Op. cit., P. 391.

عنه من قبل، وبعد فترة قبض عليه ريكمر وعفا عنه، وعينـه أسـقفًا لمدينة بلاكنتيا -Placentia– عام ٤٥٦م(١).

وخلال الفترة التي شغر فيها العرش الإمبراطوري، منذ نهايـة ٤٥٦م إلى أبريل ٤٥٧م، كان ريكمر هو صاحب السلطة الفعلية فـي جميع أجزاء الإمبراطورية، وكان يحكم إيطاليا بلقب بطريق، ورغـم قوته وسعة نفوذه إلا أنه لم يفكر في أن يلي العرش، وظـل بطريقًـا حتى وفاته عام ٤٧٢م، مفضلا أن يكون صانعًا للأباطرة، بدلا من أن يكون إمبراطورًا بنفسه، وتنازل عن منصب القائد العام Magister– Militum لصديقه ماجوريان، وذلك في نهاية فبراير ٤٥٧م(٢).

والحقيقة أن الإمبراطور ماجوريـان كـان جـديرًا بـإطراء معاصريه، وهو إطراء عبر عنه تعبيرًا قويًّا أحد المؤرخين بقوله: "إنه كان رفيقًا نحو رعيته مخيفًا لأعدائه، وقد فاق في كل الفضائل جميـع أجداده الذين حكموا الرومان".

ولقد حصل ماجوريان على اسمه هذا من جده لأمه الذي كـان يتولى منصب قيادة القوات على الحدود الأميرية في عهد ثيودسـيوس العظيم، وزوج إبنته إلى والد ماجوريان الذي كان موظفًا يشرف على دخل بلاد الغال بمهارة ونزاهة، وكان ابنه –ماجوريان– تعلم الجندية، وأظهر في شبابه شجاعة فائقة وحكمة سابقة لأوانها وسخاء، وانضـم تحت قيادة إيتيوس وشاركه مجده، وأرغمه إيتيـوس علـى اعتـزال الخدمة، وبعد موت إيتيوس عاد إلى منصب أعلـى، وكانـت صـلته بالكونت ريكمر هي التي أوصلته للعرش الإمبراطـوري؛ لأن أصـل ريكمر البربري حال بينه وبـين المنصـب الإمبراطـوري، وأبـدى الرومان إعجابهم بماجوريان وخاصة بعد انتصـاره السـاحق علـى

---

(1) Edit, The Hist. History, P. 605, Hodgkin, Op. cit., PP. 391-392.

(٢) إبراهيم علي طرخان: المرجع السابق، صـ٧٧.

الألامان -Alamanni- وتم انتخابه إمبراطورًا في معسكر كوليمـــوي -Columellue- في أبريل عام ٤٥٧م(١).

وبعد تقلده المنصب الإمبراطوري، بعث برسالة إلـــى السـناتو قال فيها: "أيها الشيوخ، لقد أصبحت إمبراطورًا باختيـــاركم وبمشـــيئة الجيش الباسل، وإني لأدعو الله العطوف أن يكون رائدي، وأن يكلـل بالنجاح والتوفيق آرائي وأعمالي في حكم البلاد، حتى تعـود بـالنفع عليكم وعلى الصالح العام، ومن ناحيتي، فإني لم أتطلع إلى الحكم بل خضعت له، ولو أني رفضت تحمل عبء الأعمـال التـي فرضـتها الدولة على شخص بدافع من الجحود الأناني الحقير، لما وفيـت بمـا عليَّ من التزامات المواطن، ومن ثم فإني أسألكم أن تقدموا العون إلى الحاكم الذي صنعتم، وتشاركوا في الواجبات التي ألقيتم عليــه، وإنـا لنرجوا أن تحقق جهودنا المشتركة سعادة الإمبراطورية التي قبلتها من أيديكم، وثقوا بأن العدالة في عهدنا سوف تسترد قوتها القديمة، وبـأن الفضيلة سوف لا تعتبر صفة بريئة فحسب، بل سـوف يكـون لهـا جزاؤها. ويجب ألا يخشى الدسائس إلا أصحابها ومختلقوها، فلقد كنت كفرد من أفراد الرعية أدينها دائمًا، أما الآن وقد أصبحت حاكمًا، فإني سوف أعاقب عليها أشد العقاب، ولسوف نحرص على مؤازرة والدنا النبيل ريكمر على تنظيم كل الشئون الحربية، ونعمل علـى سـلامة العالم الروماني(٢).

أما عن إصلاحات ماجوريان الداخلية، فقد قام بإصلاح أحوال الإمبراطورية المتدهورة وخاصة الاقتصـادية، فعمـل علـى إنقـاذ الولايات من الضرائب والضرائب الإضافية التي أثقلت كاهل الأهالي،

---

(١) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـ٢٠١-٢٠٢.

- Edit, Hist. History, P. 606.

(٢) جوزيف داهموس؛ المرجع السابق، صـ٣٣-٣٤.

ومنح عفوًا عامًّا ومطلقًا عن كل الديون المتراكمة؛ مما ساعد على تخفيف الوطأة على أهالي الولايات، وأعاد النظام القديم المتبع في جمع الضرائب، وأن تكون سلطة جمع الضرائب في أيدي حكام الولايات، وأبطل اللجان فوق العادة التي كانت تعمل باسم الإمبراطور والحكام البريتوريين، نظرًا لمسلكهم التعسفي في جمع الضرائب وما أنزلوه بالأهالي من ظلم وابتزاز، حيث لم تزد أجورهم وأرباحهم(١).

أما عن المجالس المحلية يقول عنها الإمبراطور: "هي مجالس السناتو الصغرى، وهي جديرة بأن تعتبر قلب المدن وعصب الدولة، ومع ذلك فقد انحط الآن شأنها نتيجة ظلم الحكام وجشع الجباة إلى درجة أن كثيرًا من أعضائها نبذوا مناصبهم وبلادهم ولجئوا إلى العزلة في أماكن بعيدة مغمورة". وقد أعادهم ماجوريان إلى مجالسهم ومدنهم، وقضى على أسباب تذمرهم، وأصدر إليهم توجهاته بالعودة إلى جباية الخراج تحت سلطة حكام الولايات، وطلب منهم أن يقدموا له كشف حساب عن المبالغ المحصلة، والمتأخرين عن سداد ديونهم لخزانة الدولة(٢).

ولم يجهل الإمبراطور أن أعضاء هذه المجالس الإقليمية، لا يتورعون عن الثأر لأنفسهم إذا ما أمكنتهم الفرصة، انتقامًا لما يصيبهم من حيف أو ينزل بهم من عسف وجور؛ لذلك أحيا وظيفة "حماة المدن" وهي وظيفة انتخابية، ويشترك جميع المدنيين بكامل حرياتهم في انتخاب مرشحيها، وكانت مهمة حماة المدن هي الدفاع عن حقوق السكان، وحماية الفقراء من طغيان الأثرياء، وإبلاغ الإمبراطور بما يُرتكب من مخالفات ومظالم(٣).

---

(١) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـ٢٠٢.

(2) Dill, S., Roman Society in The Last Century of The Western Empire, London, 1925, P. 290.

(٣) إبراهيم علي طرخان: المرجع السابق، صـ٧٩.

واهتم الإمبراطور ماجوريان بالحياة العامة في الإمبراطورية، فعمل على زيادة أعداد السكان، ومن أجبر الرجال علـــى أن يصـــقوا فراش الزوجية، وعمل على تطهير العلاقات الجنسية، وحكم بالإعدام على من تثبت عليه جريمة الزنا، ولم يكتفي كما كان بالنفي ومصادرة الأملاك، وحرَّم على العذارى التقيات اللاتي نذرن عذريتهن للمســيح أن يترهبن قبل بلوغ الأربعين من العمر، وأجبر الراهبات اللاتي لــم يبلغن هذا العمر أن يتزوجن مرة ثانية في مدى خمس ســنوات، وإلا آلت نصف ثرواتهن إلى أقربائهن أو إلى الدولـــة، وأمهلهـــن خمـــس سنوات لإتمام الزواج، وأدان الإمبراطور الزواج غير المتكافئ[١].

أما عن جهود ماجوريان العسكرية، فقـــد عمـــل دائبًـــا علـــى استرجاع سعادة الرومان، وجابه جيوش جوزريك وهو أقوى أعـــداء الرومان، ذلك أن أسطولا من الواندال والمغاربة رسى عنـــد مصـــب نهر لريسي Liris– غير أن القوات الإمبراطوريـــة فاجـــأت أشـــتات المتبربرين وهاجمتهم وهم مثقلون بأســـلاب كمبانيـــا، ثـــم طـــاردتهم وأشبعتهم ذبحًا وتقتيلا حتى ركبوا سفنهم، وكان قائـــدهم وهـــو زوج شقيقة الملك من بين القتلى، ومثل هذه اليقظة إنما تدل على طابع العهد الجديد، غير أن أشد اليقظة وأكثر القوات عددًا لم تكن كافية لحمايـــة شواطئ إيطاليا الطويلة من كوارث حرب بحرية، كما أن الرأي العام فرض على عبقرية ماجوريان مهمة أكثر نبلا ومشقة[٢]. ذلك أن روما توقعت منه وحده إعادة أفريقيا، وبالفعل قرر الـــذهاب إلـــى أفريقيـــا، وجمع أعدادًا كبيرة من البرابرة من الدانوب والبويستنيز والجيبيـــداي والقوط الشرقيين والروجيـــان والبرجنـــديون والســـويفي والألانـــي وغيرهم، وكان جذريك على علم بعبقرية خصمه وخططـــه وقوتـــه؛

---

(1) Hodgkin, Op. cit., PP. 420-424; Edit, Hist. History, P. 607.

(٢) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـ٢٠٦.

لذلك بعث إليه في طلب الصلح، وأخذت طلبات الصلح تزداد في كل ساعة، ولكن ماجوريان لم يوافق، وأخذ بمبدأ أن روما لا يمكن أن تنعم بالأمان طالما بقيت قرطاجة في حالة عداء لها.

وكان ملك الوندال لا يثق في شجاعة أبناء وطنه وشك في إخلاصهم له، كما أن المجهود اليائس الذي قام به لتحويل موريتانيا إلى صحراء لم يستطيع به أن يعرقل عمليات الإمبراطور الروماني الذي كان في مقدوره أن ينزل قواته في أي جزء من الشاطئ الأفريقي، غير أن جذريك نجا من هلاك قريب محقق بفضل خيانة بعض الرجال الأقوياء من رعايا ماجوريان الذين ملأهم نجاح مولاهم خوفًا وحسدًا، فأفشوا إليه أسرار خصمه ماجوريان وأرشدوه إلى مواقع أسطوله، وبذلك تمكن من مفاجأة الأسطول الذي كان رابضًا في خليج قرطاجنة دون حراسة، وأغرق أو حرق كثيرًا من السفن أو استولى عليها، وبهذا تحطمت استعدادات ثلاث سنوات في يوم واحد(١).

ولم يوفق الإمبراطور ماجوريان، وتم تدمير أسطوله أمام قرطاجنة عام ٤٦٠م بفضل دهاء جذريك وخديعة الرومان، وكانت هذه الهزيمة سببًا في زعزعة الثقة في ماجوريان، واندثرت أعماله البطولية وجهوده من أجل رفعة الإمبراطورية أمام هزيمته(٢).

والحقيقة أن ريكمر صانع الأباطرة، لم ترضه الأمجاد التي حققها ماجوريان بسبب حقده، فألب عليه طوائف المدنيين والعسكريين الذين كانوا ينتهزون الفرصة لإحلال الفوضى والاضطرابات، وأخذ

---

(١) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـ٢٠٦-٢٠٨.

- Brechier, L., The Life and Death Byzantium, Trans by, Margaret, Vagham, 1977, P. 12.

(2) Soutlar, R., Ashort History of Med. Peopls, London, 1907, P. 333.

ريكمر يثير البرابرة ضد الإمبراطور، ولم تستطع أعماله العظيمة الخالدة أن تنقذه من ثورة عارمة قام بها أتباع ريكمر ضد الإمبراطور قرب مدينة تورتونا -Tortona- عند سفح جبال الألب، وانتهت على إكراه الإمبراطور بالتنازل عن الحكم في السابع من أغسطس عام ٤٦١م، وبعد تنازله بخمس أيام فقط أشيع موته بسبب مرض الدوسنتاريا، وقد اختلفت الآراء حول موته، والراجح أنه قتل بإيعاز من ريكمر على يد أحد ضباطه، ودفنت رفاته في قبر متواضع، وأصبح ماجوريان موضع احترام الأجيال التالية، فقد كانت أعماله وأخلاقه توحي بالحب والاحترام(١).

ولقد كان الإمبراطور ماجوريان آخر الأباطرة الأقوياء؛ لأنه حكم إيطاليا وجزءًا كبير من الغال بعضًا من أسبانيا، أما خلفاؤه من الأباطرة الرومان (٤٦١-٤٧٦م) الذين تقلدوا عرش الإمبراطورية لمدة خمسة عشر عامًا، فقد كانوا ألعوبة في يد ريكمر، ولم يمارسوا أي نفوذ أو سلطة في روما(٢).

ولم تكن الأحوال بالشرق تختلف كثيرًا عن أحوال الغرب، فبعد وفاة الإمبراطور مارقيان عام ٤٥٧م، لم يكن له وريث يخلفه، وكانت أقوى شخصية في الشرق هو أسبار الألاني القائد العام للجيوش -Magistermili Jum Per Orienem- وكان مركز أسبار في الشرق يشبه مركز ريكمر في الغرب، واختار أن يكون صانع للأباطرة حتى يتحكم في السلطة، لذلك عين ليو -Leo- إمبراطورًا على بيزنطة في فبراير عام ٤٥٧م، ولم يكن ليو الأول كما كان يرجو

---

(1) Dill, Op. cit., P. 340; Hodgkin, Op. cit, P. 427; Edit, Hist. History, P. 609.

(2) Lot & Pister & Gansh of; les Destinees de L'Empire en occident de 395 a 768, Paris, 1940, P. 83.

أسبار، فقد أخذ يقلم أظافره وأظافر أسرته، مستعينًا في ذلك بالأيسوريين الجبليين وزوج قائدهم ليو من تراسيكوديسا- Trasicodissa وغير اسمه إلى زينو -Zeno- ووصل إلى العرش فيما بعد، ولم ينفذ ليو ما وعد به أسبار من ترقية ابنه إلى منصب قيصر، حتى يتمكن الابن من الوصول للعرش؛ وهذا ما حمل أسبار على أن يستوقف الإمبراطور في زيه الرسمي بقوله له: "أيها الإمبراطور، لا يليق بمن يتشح بهذه العباءة أن يحنث وعده!".

فأجابه الإمبراطور على الفور قائلا:

"ولا من اللائق أن يقيد ويساق كالعبد"(١).

وفي الغرب لم يلبث ريكمر صانع الأباطرة أن قلد صنيعته ليبيوس سيفيروس (٤٦١-٤٦٥م) -Libius severus- المنصب الإمبراطوري، ولم توافق القسطنطينية على تعيينه ولم تعترف به، ولم يعترف به الحكام الرومان في الغال ودالماشيا، واحتجوا على سياسته التعسفية واستبداده، وظل أجيديوس -Egidius- حاكم الغال، وماركلينوس -Marcellinus- حاكم دالماشيا، يحكمان ولايتيهما باسم الإمبراطورية في الشرق، وأصبح الإمبراطور الشرقي يمارس نفوذًا اسميًّا على الغرب، وظل النفوذ الحقيقي في أيدي ريكمر بعد وفاة سيفيروس(٢).

وبعد وفاة سيفيروس، حكم ريكمر ثمانية عشر شهرًا، وعجز خلال تلك الفترة عن مقاومة القوات البحرية الوندالية، واضطر ريكمر إلى الاتفاق مع السناتو الروماني على مخاطبة الإمبراطور ليو ليختار امبراطورًا على الغرب حتى يضمن مساعدة الإمبراطور ليو في

---

(١) إبراهيم علي طرخان: سقوط الإمبراطورية في الغرب عام ٤٧٦م، صـ٨٠-٨١.

- Bradley, The Gths, P. 133; Lot, The End Ancient, P. 218.

(2) Dill, Roman Society, P. 390; Edit, Hist. History, P. 612.

حرب الوندال، ووقع اختيار ليو الأول عام ٤٦٧ علــى أنثميــوس – Anthmius وهو من أسرة شرقية نبيلة واسعة الثراء، وارتفع شــأنه بسبب زواجه من إيوفميا -Euphemia- إبنة الإمبراطور مارقيــان، بالإضافة إلى فضائله الكثيرة، فتمت ترقيته بسرعة إلى كونت فقائــد عام فقنصل ثم بطريق، إضافة إلى مجده السابق في انتصــاره علــى الهون؛ لذا فقد جاء اختيار أنثميوس برضـــا الشــرق والغــرب عــام ٤٦٨م[١].

وأقدم ريكمر على خطوة هامــة وهــي زواجــه مــن ابنــة الإمبراطور أنثيموس، وتوقع الرومان الخير والوفاق وحسن التعــاون بين البطريق والإمبراطور، فاحتفلت روما بهذا الــزواج، وامــتلأت الشوارع والملاهي بالرقص والغناء، وتوجهت العروس فــي موكــب عظيم إلى قصر ريكمر، واستبدل زيه البربري بزي السناتو. وقــرر ليو وأنثميوس تجهيز حملة ضخمة ضد مملكة الوندال في أفريقية حتى يتم التعاون بــين الإمبراطــوريتين الشــرقية والغربيــة، وتكبــدت الإمبراطورية في الشرق العبء الأكبر في أعداد الأسطول وتجهيزه، وفشلت هذه الحملة فشلا ذريعًا في عام ٤٦٨م[٢].

وتسببت هذه الحملة الفاشلة في خســائر كبيــرة فــي الشــرق والغرب، فقد أفلست خزانة الإمبراطورية الشرقية؛ لأن الإمبراطورية الشرقية هي التي تحملت العبء الأكبر من التجهيزات، وتــم إحبــاط سياسة الوفاق بين الإمبراطوريتين في الشرق والغرب، وكان الفــائز في هذا الفشل ريكمر وأسبار؛ لأنهما كانا يخشــيان تعــاون قســمي

---

(1) Hodgkin, Op. cit., PP. 451-452.

(2) Edit, Hist. History, PP. 612-613; Brooks, The Emperor Zenon and The Isaurian, London, 1893, P. 212; Barker, Op. cit., PP. 425-426.

الإمبراطورية أن يضر بمصالحهما، فريكمر ازداد نفوذه، أما أسبار فقد قرر ليو أن يرضيه فأغدق على باتركيوس بلقب قيصر وهو لقب يخول صاحبه للوصول إلى الحكم، رغم أنه بربري وأريوسي المذهب.

وفي وسط هذه الظروف، اتُّهم أسبار بالخيانة العظمى في كارثة الأسطول الروماني أمام قرطاجنة. كما اتهم بتدبير مؤامرة ضد أنثميوس إمبراطور الغرب، وتم إعدام أسبار وجميع أفراد أسرته عام ٤٧١م[١].

وفي الغرب ساءت العلاقات بين القائد ريكمر والإمبراطور أنثميوس، فقد شعر أنثميوس بالمهانة والمذلة في أن يكون ألعوبة في يد البربري ريكمر، وعندما وقع أنثيموس فريسة للمرض، أعتقد أن ذلك نتيجة عمل سحري، فاعتقل عددًا كبيرًا ممن دار حولهم الشك وأعدمهم، ومنهم البطريق رومانوس أحد أتباع ريكمر، وظهرت روح العداء بين الطرفين، وحاولت ابنة ريكمر توفيق الأوضاع بين والدها وزوجها ففشلت، وخشي ريكمر على حياته، وغادر روما مسرعًا، وجمع ريكمر أتباعه حوله وبلغوا ستة آلاف محارب، واتخذ مدينة ميلان مركزًا لعملياته الحربية، ونظرًا لقوة ريكمر وشهرته تجمع حوله العديد من الأتباع المعاهدين، وعلى رأسهم صهره ملك برجنديا[٢].

وفي المقابل اعتمد أنثميوس في روما على تأييد السناتو والشعب، ولاح في الأفق هول الحرب الأهلية في إيطاليا، وتدخل أهالي ميلان للتوسط بين الإمبراطور والقائد ريكمر، وانتدبوا لذلك

---

(1) Edit, Hist. History, P. 614; Brook, Emperor Zenon, P. 212; Lot, les invasions, P. 116, Hodgkin, P. 478.

(2) Hodgkin, Op. cit., P. 466.

أسقف مدينة تيكنم Ticinum- ويدعي إيبفاميوس Epiphamius- ونجح الأسقف في عقد هدنه مؤقتة بينهم(١).

على أن البطريق ريكمر انتهز هذه الهدنة لمضاعفة قواته واستعداداته، واستقدم عددًا كبيرًا من أنصاره من السويف والبرجنديين، وعندما اطمأن إلى قوته نقض الهدنة محتجًا بمقتل أسبار في الشرق، وأعلن أنه يرفض الاعتراف بالإمبراطور ليو، وكذلك بالإمبراطور أنثميوس صنيعته، فقد ساءه التقارب والتعاون بين الاثنين، حتى كانت العملة الرومانية تضم صورة الإمبراطورين يصافح بعضهما البعض. ولم يضيع وقتًا، بل سرعان ما أعلن مرشحًا جديدًا لعرش الإمبراطورية في الغرب وهو أوليبريوس(*) - Olybrius في عام ٤٧٢م، وبدأ يتحرك نحو روما وهزم الجيش الذي جاء لنجدة أنثميوس، بقيادة حاكم غالة وقتل قائده، وقاومت روما بعض الوقت، ولكنها استسلمت تحت ضغط الجوع والقحط، فاستباحها ريكمر لجنوده، وقتل الإمبراطور أنثميوس(٢).

---

(1) Hodgkin, Op. cit., P. 467.

(*) أوليبريوس حكم عام ٤٧٢م وتوفي في نفس العام وهو حمى ريكمر، وهو من عائلة أرستقراطية، وكان يعيش في القسطنطينية، وشك الإمبراطور الشرقي في تصرفاته وإخلاصه، فعقد العزم على التخلص منه، ومن ثم أرسله إلى روما، بحجة تسوية الموقف بين أنثميوس وريكمر، وأرسل معه رسالة مختومة يطلب من أنثميوس قتله، ولكن تلك الرسالة وقعت في يد ريكمر، فأخبر أوليبريوس بما فيها، واتفق الاثنين، ورفع ريكمر أوليبريوس إلى عرش الإمبراطورية الغربية.

أنظر في ذلك:

- Hadas, Op. cit., P. 243; Barker, Op. cit., PP. 428-429.

(٢) إبراهيم علي طرخان: سقوط الإمبراطورية في الغرب ٤٧٦م، صـ٨٤.

- Edit, Hist. History, PP. 613-614.

وبعد موت الإمبراطور أنثميوس ودخول ريكمر روما ظافرًا، فجأة تُوفي القائد ريكمر في نهاية أغسطس عام ٤٧٢م بسبب نزيف حاد أصابه، ولحق به صنيعته أوليبريوس بعد شهرين فقط، فلم تكن مدة حكمه أكثر من ثلاثة شهور، وظل العرش شاغرًا فترة، ورشح البرجنديون ضابطًا منهم وهو جليكريوس Glycerius– الذي كان يعمل رئيس حرس الأمير البرجندي جندوباد Gundobed– ولكن القسطنطينية لم تعترف به إمبراطورًا؛ لأنه لم يكن متعاطفًا مع سياستها، واختارت بدلا منه يوليوس نيبوس Julius Nepos– (٤٧٣–٤٧٥م) حاكم دلماشيا إمبراطورًا على الغرب، وأثناء هذه الأحداث تُوفي الإمبراطور الشرقي عام ٤٧٤م مما عاق سفر نيبوس لتسلم الإمبراطورية في الغرب، وتولى ابنه عرش بيزنطة، ولما كان طفلا تولى الوصاية عليه زينو الأيسوري[1].

وفي تلك الأثناء ظهر في الأفق عدو جديد لروما، ذلك هم القوط الشرقيون الذين استقروا في بانونيا على الضفة الغربية للدانوب، وبعد فشل أتيلا سابقًا، ظلوا في مقرهم ببونونيا نحو عشرين عامًا، وهم في عداء مستمر مع جيرانهم البرابرة من السويفي والروجيين في الشمال والغرب، ومع الهون والسارمات في الجنوب والشرق.

ويقول –جوردن– المؤرخ القوطي أن القوط الشرقيين بدءوا يشعرون بالحاجة إلى الغذاء والكساء، بعد أن نفذت أسلابهم ومغانمهم من الحرب، وهي أساس حياتهم، لذلك بدءوا يفكرون في شن حرب ضد الإمبراطورية للحصول علي أساس حياتهم، فقسموا أنفسهم إلى قسمين: قسم بزعامة تدمير -Theudemir– وهو القسم الأقوى، وعهد

---

[1] Bradley, The Goths, P. 335; Lot, Les invasions, P. 116; Hodkin, Op. cit., PP. 478-480, Hadas, Op. cit., P. 243.

إليه بغزو بيزنطة، وقسم آخر بقيادة أخيه الأصغر ودمير- Widemir ومهمته غزو روما.

وقام ودمير بغزو إيطاليا، ولقي مصرعه، فخلفه ابنه وسميه، ونجح جليكريوس في رشوة هذا الفريق من القوط الشرقيين حتى تراجع عن إيطاليا وحول وجهته إلى الغال وتحالف مع القوط الغربيين، وهكذا نجح جليكويوس في إبعاد خطر القوط الغربيين(١).

وقدم نيبيوس إمبراطور الغرب إلى إيطاليا في ربيع ٤٧٤م، ولم يكن هناك حروب بين جليكريوس الذي خلف ريكمر في زعامة المعاهدين البرابرة ونيبوس، لذلك تسلم الإمبراطور نيبوس العرش دون مشقة، وتولى العرش في الرابع والعشرين من يونيه ٤٧٤م، وقبض نيبوس على جليكريوس وعفا عنه، وعينه أسقفًا لمدينة سالونا -Salona- عاصمة دلماشيا، وحكم نيبوس الإمبراطورية في الغرب أربعة عشر شهرًا فقط، وخلال تلك الفترة أبرم معاهدة مع القوط الغربيين كانت مذلة لروما تنازل بمقتضاها عن منطقة أوفرني، وأغضبت هذه المعاهدة الرومان، وقاموا بالثورة ضد نيبوس(٢).

وقام بهذه الثورة المعاهدين البرابرة، وعلى رأسهم الضابط الروماني أورستيز -Orestes- والواقع أنه كان رومانيا، ولم تجر في عروقه الدماء الجرمانية، ودخل في خدمة الزعيم الهوني أتيلا عندما كان صغيرًا حتى صار سكرتيره، واستطاع بفضل شجاعته ومهارته التدرج في المناصب، حتى وصل إلى منصب القائد العام للجيش الروماني، وصار صاحب السلطة في الإمبراطورية، وكان بإمكانه أن

---

(١) إبراهيم علي طرخان: سقوط الإمبراطورية في الغرب عام ٤٧٦، صـ٨٥.

- Hodgkin, Op. cit., PP. 478-480, Bradleus, The Goths, P. 126.

(2) Lot, Les invasions Germaniques, P. 116; Hodgkin, Op. cit., PP. 484, Bradley, The Goths, P. 126.

يصل إلى العرش في الغرب، بعد أن فر نيبوس إلى دلماشيا، وفضل أن يبتعد عن هذا المنصب، كي يتجنب ما يجره على صاحبه من متاعب[1].

وأدرك أن المنصب الإمبراطوري في الغرب غير مأمون بعد الذي شهده لمدة عشرين عامًا ماضية، لذلك فضل أن يحكم باسم ابنه رومولوس أغسطولوس -Romulus Augustulus– الذي توج في التاسع والعشرين من أكتوبر ٤٧٥م، وهو صبي لم يتجاوز الرابعة عشر، ولم يتميز هذا الصبي سوى بجمال الشكل، واكتفى والده أورستيز بلقب بطريق، وإن كان هو الحاكم الفعلي للإمبراطورية[2].

والحقيقة أنه من خلال الأحداث السابقة نجد أن خطر المعاهدين في الجيش الروماني قد استفحل جدًّا، فقد دخلوا إيطاليا مغامرين وليس فاتحين، وخدموا في الجيش الروماني، وكانوا يتكونون من ست قبائل رئيسية وهم: الهيرولي والقوط والروجيين والألان والسكيرين والتورسيلنج -Turcilingi–، وهم عصب الجيش الروماني، والمسئولين عن حماية إيطاليا، ومع مرور الوقت أصبحوا يمثلون الخطر الأول على إيطاليا[3].

وكانت أهم المشاكل التي واجهت الإمبراطورية في الغرب من هؤلاء المعاهدين في الجيش، وأدرك أورستيز أن دروس الخيانة والثورات التي شهدها واشترك فيها وعالجها سوف تنقلب ضده، وأن عرش ابنه المزعزع لا يختلف كثيرًا عن سلفه من أصحاب العروش،

---

(1) Lot, les invasions Germaniques, P. 116; Barker, Op. cit., PP. 429-430; Bradley, Op. cit., PP. 126-127.

(2) Bradley, Op. cit., PP. 126-127, Edit. Hist. History, P. 610.

(3) Edit, Hist. History, PP. 615-616; Hodgkin, Op. cit., PP. 510-511; Taylor, Med. Mind, Vol. 1, PP. 113-114.

ووجد نفسه بين أمرين لا ثالث لهما: إما أن يكون أداة طيعة لأهواء المعاهدين ونزواتهم ومطامعهم، وأما أن يقاومهم فيتعرض لثوراتهم وجموحهم. فقد دأب المعاهدون على المطالبة دائمًا برفع أجورهم وزيادة مخصصاتهم حتى تضخمت يومًا بعد يوم ومع ذلك لم يقتنعوا بما وصلوا إليه، وتقدمت إليه الفرق وهو في راقنا وقدمت إليه ملتمسًا فحواه: "خصص لنا ثلث أراضي إيطاليا نتوارثه" بمعنى أن يتقاسم المرتزقة أملاك الإيطاليين.

وكان أورستيز على غير ما توقع المعاهدين، حيث قابل طلبهم بالرفض والحزم؛ لأنه لم ينسى أنه روماني، وجاء رفض أورستيز لطلب المعاهدين فرصة اغتنمها أدواكر -Odoacer- البربري السكيري الجسور[1].

وزحف أدواكر وأتباعه نحو تيكنم الحصينة، حيث تقهقر أورستيز، وحاصرها أدواكر ودمر معاقلها، ودخلها عنوة ليحقق آمال المعاهدين واستباحها كرجاله، ورغم الجهود التي بذلها القديس إبيفاميوس -Epiphamius- أسقف المدينة، ونجح في إنقاذ أموال الكنيسة وإطلاق سراح النساء والسبايا، وبادر رجاله بإعلانه ملكًا

---

(١) أدواكر (٤٣٣-٤٩٣م) وهو ابن أديكون -Edecon- من قبيلة السكريين الجرمانية، وهم شعب صغير يتكلم القوطية، خدم أبوه مع أورستيز في بلاد أتيلا، وكان من أبرز أعضاء السفارة التي بعث بها أتيلا إلى القسطنطينية، ٤٤٨م وبعد موت أيدكون تشرد والداه، وتوجه أونولف إلى القسطنطينية، وعاش أدواكر متجولا مغامرًا يأكل بحد السيف بين البرابرة في نوريكوم -Noricum- حيث زار القديس ساويرس -St. Seuerus- وطلب منه أن يباركه، ولما أخبره أدواكر بأنه يعتزم التوجه إلى إيطاليا سرعان ما استجاب وتنبأ له بمستقبل عظيم.

انظر في ذلك:

- إبراهيم علي طرخان: سقوط الإمبراطورية في الغرب ٤٧٦م، صـ٨٧-٨٨.
- Hodgkin, Op. cit., PP. 516-517; Edit, Hist. History, P. 616-617.

عليهم في الثاني والعشرين من أغسطس من نفس العام، وعفا أدواكر عن الإمبراطور أوغسطولوس بعد أن طلب الرحمة، وسمح له بالإقامة في قصر كمبانيا، وقرر له معاشًا سنويًّا طيلة حياته[1].

والحقيقة أن أدواكر كان أول متبربر يتولى المُلك في إيطاليا، وحكم شعبًا أتيح له يومًا أن يؤكد تفوقه بحق على بقية الجنس الإنساني، وما تزال المذلة التي لحقت بالرومان تثير فينا الشفقة والاحترام، فنرثى في قلوبنا لما أحست به ذريتهم من حزن وسخط، غير أن كوارث إيطاليا قهرت بالتدريج إحساسهم الشامخ بالحرية والمجد.

وفي عصر القوة الرومانية خضعت الولايات لجيوش الدولة، كما خضع المواطنون لقوانينها حتى إذا ما أطاحت النزاعات الأهلية بتلك القوانين وأصبحت المدينة والولايات ملكًا ذليلا لطاغيه، وأصبح الإيطاليون يضيقون تارة بوجود الملوك الذين يكرهونهم ويحتقرونهم، ويأسفون تارة لعدم وجودهم.

وتوالت عليهم خمسة قرون انصبت عليهم فيها مختلف شرور الإباحية العسكرية والاستبداد المتقلب والظلم المحكم، وفي الفترة نفسها ظهر المتبربرون بعد أن كانوا مغموريين محتقرين، ودخل مقاتلوا ألمانيا وسكوزيا ولايات الإمبراطورية خدمًا للرومان في أول الأمر ثم حلفاء معاهدين، ثم كانوا في نهاية المطاف سادة لأولئك الذين أصبحوا في حماهم أو موضع إهانتهم، وكبت الخوف كراهية الشعب الذي وصل به الأمر إلى احترام شجاعة وجلال الرؤساء العسكريين الذين أغدقت عليهم أمجاد الإمبراطورية، وظل مصير روما يعتمد فترة

---

[1] Bradely, The Goths, PP. 128-129; Hodgkin, Op. cit., PP. 514-515; Lot, Les invasions Germaniques, P. 117-118.

طويلة غير محسوسة على استعداد للإعتراف بملكيه أدواكر وخلفائـــه المتبربرين[١].

ولم يستبح أدواكر لنفسه اغتصاب لقب إمبراطور بعد أن عزل آخر أباطرتها؛ لأن هذا الأمر كان فوق طاقة زعيم متبربر لـيس لـه الحق في حمل اللقب الإمبراطوري[٢]، فكفاءته فقط هي التي حملت المعاهدين على الالتفاف حوله وانتخابه ملكًا متبربرًا علـيهم، ولـيس على إيطاليا[٣].

ولما كان العرف المتبع في حالة المعاهـدين فـي الغـرب أو صناع الأباطرة أمثال ستليكو وقسـطانطيوس وإيتيـوس وريكمـر وأورستيز.

وحتى لا يثير أدواكر حقد داعمي المعاهدين الذين أولوه ثقـتهم وولاءهم، لم يتخذ شعار الملكية، وعالج الأمور بحكمة ورزانة وأنـاه، والمعروف أنه ليس من بيت ملك، ولم يرفعه سوى صفاته الشخصية، من أجل ذلك ادعته لنفسها كل قبيلة من الأربع قبائل الرئيسـة التـي يتكون منها جيش المعاهدين في إيطاليا يومئذ، شأن مشاهير الرجـال الذين تفتخر كل دولة أو كل شعب بانتمائهم إليها، وهذه القبائـل هـي الروجيون والهيروليون والسكيريون والتورسيلنج؛ ولذلك اختلفت أقول المؤرخين حول نسبته لأي من هذه القبائل، فنعته -جوردن- القـوطي بأنه ملك التورسيلنج Odovacer rex tutcilingorum-؛ لأن اسمه يقترب من الأسماء المتداولة بين أفراد هذه القبيلة، ويقول كـذلك إنـه ربما كان من الروجيين أو السكيريين والقوط، ولما كان السـكيريون يتكلمون لغة القوط فإن هذا ما يفسر مـا ذكـره الأسـقف مـاريوس

---

(١) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـ٢٠٩.

(2) Cantor, Medieval History, P. 120.

(3) Lot, Les invasions Germaniques, P. 118.

والمؤرخ مارسللينوس من أن أدواكر لا يعدو أن يكون ملك القــوط - Rex Gothorum ونظرًا لأن أدواكر تولى قيادة الهيروليين نسبة إلى المؤرخ بروسبر وقال إنه ملك الهيروليين -Rex Erulorum- ولعل المأمون أن أدواكر عمومًا جرماني، إذ أن ما عرف به بين المعاهدين في عام ٤٧٦م هو أنه ملك -Thiudans- فقط(١).

وحاول أدواكر أن يكسب حكمه الشرعي، فراسل الإمبراطــور البيزنطي زينون، فأرسل في صيف ٤٧٧م بعثة من قبله وقبل سناتور روما، فأخبرته البعثة أن الغرب لم يعد في حاجة إلى إمبراطور خاص به، وأنهم يعتبرون أن زينون إمبراطورًا علــى الشــطرين الشــرقي والغربي، ومن الاعتبــارات التــي حملــت أدواكــر علــى إزالــة الإمبراطورية في الغرب أنها أضحت شكلية بحتة لا فائــدة منهــا ولا طائل وراءها، فضلا عن أنها عبء على الميزانية المتدهورة، وينبغي أن ينقل مركز الإمبراطورية من روما إلى القسطنطينية، وأرسل شعار روما إلى الإمبراطور زينون. وفي الوقت ذاته التمس أدواكــر مــن دينون أن يمنحه رتبة البطرقية، وأن يعهد إليه بإدارة شئون إيطاليا(٢).

وقامت ثورة ضد الإمبراطور ذنون في الشرق بقيادة منافســة على العرش باذلسكوس -Basiliscus- ونجحت القوة في طرد زينون عام ٤٧٥م إلى موطنه الأصلي في إيسوريا، ونجح في العــودة إلــى العرش ثانية بفضل خيانة القائد هارماتيوس الذي كان مكلفًا بــالقبض عليه إيسوريا، فعاد ومعه جيشه ومعه زينون إلى الحكم مرة أخــرى، لذلك كان يأمل أدواكر من زينون الحديث العودة إلى الحكم أن يســعد

---

(١) إبراهيم علي طرخان: سقوط الإمبراطورية الغربية، صـــ٩١-٩٢.

- Hodgkin, Op. cit., P. 529.

(٢) عفاف سيد صبرة: الإمبراطوريتان البيزنطة والرومانية زمن شــارلمان، دار النهضــة العربية، ١٩٨٢، صـــ٢٤.

- Souttalr, Op. cit., P. 336; Hadus, Op. cit., PP. 244-245.

بكونه إمبراطورًا على الشرق والغرب، ويوافق علـــى طلبــات بعثـــة أدواكر والسناتو.

وفي نفس الوقت قصد سفراء الإمبراطور المخلوع في الغرب نيبوس الإمبراطور زينون لمساعدة الإمبراطــور نيبـــوس، وإعادتـــه للعرش في الغرب مرة أخرى(١).

والحقيقة أن ملك إيطاليا أدواكر كان جديرًا بالمكانـــة الســـامية التي طلبها من الإمبراطور زينون بفضل شجاعته، فقد تهذبت أخلاقـــه الشرسة بعد أن اعتاد التحدث إلى الناس واحترام نظم رعاياه، وآرائهم المبتسرة، رغم أنه كان غازيًا ومتبربرًا.

وبعد فترة سبع سنوات أعاد أدواكر المنصب الخاص بقنصـــل العرب، ومن ناحيته رفض تولي المنصب، ذلك المنصب الذي كـــان أباطرة الشرق لا يزالون يقبلونه، ونفذت قوانين الأباطرة السابقة بحزم وصرامة، وظل الوالي البريتوري وصغار موظفيه يمارســـون الإدارة المدنية في إيطاليا. ووكل أدواكر إلى الحكام الرومـــان تلـــك المهمـــة الجائزة الممقوتة، وهي مهمة جمع الإيراد العام، واحتفظ لنفسه بميـــزة التساهل مع الشعب ومد آجال الدفع، وأصبحت إيطاليا في حمى الرجل الذي غزاها، واحترم حدودها برابرة الغال وألمانيا الذين ظلوا فتـــرة طويلة يستهينون بسلالة ثيودسيوس الضعيفة(٢).

ورغم فضائل أدواكر السابقة التي كان يعلمها جيدًا زينون، إلا أن إجابته على بعثة أدواكر من السناتو كانت غامضة، فأرسل خطاب مع السناتو إلى أدواكر بنعته فيه "بالبطريق" ويشكره على حسن تهنئته بعودته للحكم، ويطلب منه أن يوجـــه ولاءه وخدماتـــه للإمبراطـــور المخلوع نيبوس. ولامه أشد اللوم على سوء معـــاملتهم لاثنـــين مـــن

---

(1) Hodgkin, Op. cit., PP. 524-525.

(٢) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـ٢٠٩-٢١٠.

الأباطرة وهما أنثميوس ونيبوس، وهم من أصل شرقي ومن مرشحي بيزنطة، وقد تم تعينهم بناءً على توسلات إيطاليا، وقال: "الأول قتلتموه والثاني طردتموه. غير أن نيبــوس الأول حــيٌّ فهــو إمبراطــوركم الشرعي ولا يحق لكم الولاء لغيره"[١].

وقد عبر أدواكر البحر الأدياتي لمعاقبة قتله نيبوس، وللاستيلاء على ولاية دلماشيا البحرية، كما عبر جبال الألب لإنقاذ آثار نوريكوم من الملك فافا -Fava- ملك الروجيان الذي كان مقيمًا وراء الدانوب، وهزم هذا الملك في ساحة القتال وأخذ أسيرًا، ونقلت إلى إيطاليا جالية كبيرة العدد من الأسرى والرعايا حيث استقرت هناك، وهكــذا نــرى روما بعد فترة طويلة من الهزيمة والعار، تدعي لنفسها النصر الــذي حازه سيدها المتبربر أدواكر[٢].

ولكن زينون المشهور بالحيلة والجبن والهلع سرعان ما ينخلع قلبه لمجرد رؤية المعارك الحربية، وســرعان مــا اســتهوته فكــرة الإمبراطورية الموحدة، وخاصة أنه سوف يكون على رأسها، فتــرك قضيته الخاسرة، ولم يحاول إيجاد إمبراطور جديد يحل محله، عنــدما بلغه مقتل نيبوس في قصره في الخامس عشر من مايو ٤٨٠م على يد اثنين من أتباعه، وهم كونت فيــاتور Viator- وكونــت أوديفــا - Odiva ويحتمل أن يكون ذلك بإيعاز من الإمبراطور زينون نفسه.

وبعد مقتل نيبوس وافق زينون على الاعتراف بأدواكر حاكمًــا على إيطاليا، وأن يكون بطريقًا ونائبًا له[٣].

وهكذا زالت الإمبراطورية الرومانية في الغرب ٤٧٦م، وهكذا سقطت روما بعد سبعة قرون من تاريخها الجمهوري، وبعــد خمســة

---

(1) Edit, Hist. History, PP. 617-618; Hodkin, Op. cit., PP. 526-527.

(٢) إدوارد جيبون: المرجع السابق، صـــ ٢١٠.

(3) Lot, Le invasions Germaniques, PP. 116-117; Soultalr, op. cit, P. 335.

قرون من إمبراطوريتها، وفقدت أملاكها ومجدها العظيم[١]، وأصبحت إيطاليا من الوجهة القانونية تابعة للإمبراطورية الرومانية التي لم يبق غيرها على قيد الحياة وهي الإمبراطورية البيزنطية، وحتى هذه الإمبراطورية لم يكن لها عندئذ نفوذ فعلي ملموس في إيطاليا، مما جعل البابوية القوة الوحيدة القائمة التي ألتف حولها الإيطاليون طوال القرون التالية[٢].

وإذا كان بعض المؤرخين قد اعتادوا أن يبالغوا في أهمية الأحداث التي جرت ٤٧٦م، ويتخذون هذه السنة التي سقطت فيها الإمبراطورية الغربية حدًّا فاصلا بين عصرين، فإننا يجب ألا ننساق معهم في تفكيرهم وتيارهم؛ ذلك أن الإمبراطور الغربي كان لا يمتلك فعلا شيئا من مظاهر القوة، في الوقت الذي سقطت إمبراطوريته، هذا فضلا عن أن إيطاليا كانت منذ أمد بعيد مسرحًا لعبت عليه كثير من الطوائف الجرمانية التي تطرقت إليها، ومن هذا يبدو أن عزل الإمبراطور الطفل أوغسطولوس على يد أدواكر ٤٧٦ لم يؤدي إلى تغير كبير في الحالة القائمة فعلا.

وهنا ينبغي أن نسجل أيضًا أن أدواكر نفسه لم يقصد بعمله أن يبدأ عهدًا جديدًا أو يحدث انقلابًا من نوع غير معروف. وإنما كل ما كان يطمع فيه هو أن يحظى بما فعله غيره من زعماء الجرمان داخل الإمبراطورية، والحقيقة أن العالم الغربي ظل بدون إمبراطور من عام ٤٧٦م حتى تتويج شارلمان عام ٨٠٠م الأمر الذي ظهر واضحًا في تطور الممالك الجرمانية الناشئة من جهة وتطور البابوية من جهة أخرى، ولكن عدم وجود أباطرة في الغرب طوال هذه القرون الثلاثة لا يعني بأي حال زوال فكرة الإمبراطورية.

---

(1) Soulttalr, Op. cit., P. 336.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، صـ٩٤.

ويصر بعض الكتاب مثل –أومان– على أن عــام ٤٧٦م لــه أهمية خاصة كخط فاصل بين التــاريخ القــديم وتــاريخ العصــور الوسطى[١].

وبعد عام ٤٧٦م تغيرت خريطة أوربا، وأصبحت هناك ســت ممالك جرمانية قامت على أنقاض الإمبراطورية الغربية وهي:

١- مملكة أدواكر في إيطاليا ونوريكوم.

٢- دولة البرجنديين في وديان الرون والساؤن وعاصمتهم ليون Lyons.

٣- دولة السويف فيما هو شمالي البرتغال وغاليسيا في أسبانيا وعاصمتهم برغش.

٤- مملكة جذريك الواندلي في شــمال أفريقيــا وعاصــمتهم قرطاجنة.

٥- مملكة الفرنجة في شمال الغال وحول المــوز -Meuse– والموزل -Moselle– والراين الأدنى.

أما المناطق التي ظلت في أيدي الإمبراطوريــة الرومانيــة أو بقاياها فتتمثل في أربعة وحدات سياسية مفككة وهي:

١- ولاية بريطانيا وهي مقسمة إلى مجموعــة مــن الممالــك الكلتية الصغيرة، وعلى حدودها الأنجلوسكسون.

٢- مملكة سياجروس التي استقل بها القائد الروماني في شمال الغال، وعاصمتها سواسون– Soissons.

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، صـ٩٤-٩٥.

- Bradley, The Goths, PP. 134-137.

٣- بريتاني وهي مقسمة إلى إمارات كلتية على شكل تحالف – Confederacy.

٤- ولاية دلماشيا على البحر الأدياتي وعاصمتها سالونا[١].

وهكذا زالت الإمبراطورية في الغرب فعليًا واسميًا ورسميًا عام ٤٧٦م.

** ** **

(1) Brudley, The Goths, PP. 134-137; Deanesly, Op. cit., P. 2; Soultalr, Op. cit., PP. 336-337.

نتائج معركة شالون

لقد كانت معركة شالون أهم وآخر معركة فاصلة خرجت فيها الجيوش تحمل شارة الإمبراطورية الرومانية في غرب أوربا، وكانت شالون السبب الرئيسي الذي حطم أسطورة جيش الهون الذي لم يقهر، وأسهمت المعركة ليس فقط في إنقاذ غرب أوربا وعالم الفكر والثقافة بها، بل أنقذت القسطنطينية من عدو عنيد كان سيظل دائمًا يستنزف مواردها ويهدد أمنها، فلولا المعركة ما استطاعت بيزنطة الصمود على مسرح الأحداث طيلة هذه القرون، وزال مجد الإمبراطورية الرومانية في الغرب.

ولقد طمع البرابرة الجرمان ومنهم أتيلا في الغرب، وانصرفوا عن القسطنطينية بسبب مناعة أسوارها وقوة تحصينها، فموقعها هو الذي حماها من هجمات البرابرة. والموقع الجغرافي للقسطنطينية أو روما الجديدة، هو مثلث الشكل غير متساوي الأضلاع متعرج الخطوط، ويقع طرف هذا المثلث المقوس إلى الشرق، أما قاعدته فتقع إلى الغرب، وتحيط المياه بهذا المثلث من كل جانب عدا الجانب الغربي المواجه لأوربا، وتوجد المضايق والخلجان والجذر على طول سواحل المدينة وهي تساعد في العمليات التجارية، وتضيف إلى المدينة حصانة على حصانتها، وتقع المدينة على خط عرض ثلاثة وأربعين وخط طول تسعة وعشرين، وتشرف من تلالها السبعة على شاطئ أوربا وآسيا المتقابلين ولها مواني منيعة واسعة بالإضافة إلى مناخها المعتدل.

وهذا الموقع المتميز هو الذي دفع أتيلا للابتعاد عنها، وكذلك لعلمه أن القسطنطينية يسهل عليها الحصول على الإمدادات من الأسطول البيزنطي؛ لذلك قرر الذهاب لروما، والتي كانت مرتعًا خصبًا لخطط أتيلا العسكرية.

ويلاحظ أن بناء "روما الجديدة" أدى إلى التنافس بينهما وبين "روما الخالدة" وبات وزراء كل عاصمة يكيدون لبعضهم البعض، وانشغل أباطرة الشرق بمشاكل أملاكهم، وانصرفوا عن الغرب، رغم أنهم ظلوا يعتبرون أنفسهم ورثة القياصرة الأوائل، ولاشك أن الأباطرة الذين حكموا القسم الغربي من هونوريوس بين ثيودسيوس حتى رومولوس أوغسطولوس، كانوا ضعافًا باستثناء واحد منهم هو ماجوريان، ولا يقاسون بسلسلة الأباطرة العظام الذين تولوا حكم القسم الشرقي، حيث صارت السلطة الفعلية في القسم الغربي في أيدي قادة الجيوش من الجرمان -Magistri Militum- فنجد في مطلع القرن الخامس الميلادي القائد ستليكو جاء من صناع الأباطرة من القادة العسكريين من تحكم في مصائر الإمبراطورية وأباطرتها أمثال قسطانطيوس وإيتيوس وغيرهم.

وإن كان العامل المباشر في تدهور الرومان في مواجهة أتيلا يرجع إلى الضعف الحربي، فلم يعد مع نهاية القرن الثالث الميلادي جيش روماني؛ بمعنى أن العنصر الروماني قد تدهور وفسد وانحطت فيه الروح العسكرية القديمة، حتى صار جل اعتماد الدولة على المرتزقة المعاهدين Foederati من البرابرة، وتغلغل هؤلاء في الجيش الروماني، حتى صاروا القوة الأساسية العاملة، وأعطوا نظير خدماتهم الأراضي الزراعية، فضلا عن المخصصات، وصار بيدهم الحل والعقد، وطمعوا في السلطة، وأضحى قادتهم أصحاب الأمر والنهي، وازداد الرومان ضعفًا، في حين ازداد البرابرة الجرمان قوة.

وكانت لهذه المعركة نتائج هامة، وأطلقوا عليها معركة الشعوب؛ نظرًا لأن شعوبًا جرمانية عديدة اشتركت فيها، فكانت الهزيمة تعني النسيان، والحقيقة أن معركة شالون أنهت الأسطورة التي زعمت أن الهون قوم لا يغلبون من جهة، وأن أتيلا سلاح لا يقهر من جهة أخرى.

وكان من نتائج المعركة كذلك الخسائر البشرية من الطرفين التي كانت فادحة. فيذكر المؤرخون أن عدد القتلى من الجانبين قد بلغ ثلاثمائة ألف محارب ، وهو رقم مبالغ فيه إذا ما قورن بما قدره -جوردن- المؤرخ المعاصر بحوالي مائة ألف وخمسة وستون ألفًا.

ومن النتائج الهامة كذلك لمعركة شالون فشل أتيلا في الاستيلاء على بلاد الغال، ويرجع بعض المؤرخين أن السبب في فشل أتيلا في الاستيلاء على بلاد الغال دعاء فتاة صغيرة، ولكن الحقيقة أنه كان بسبب قوة تحصينات المدينة الدفاعية الكبيرة.

وواصل تقدمه كذلك لمحاصرة أورليان، وشعر الإمبراطور فالنتيان الثالث بخطر احتمال خسارته، فأمر قائده إيتيوس بجمع جيشه والزحف لإنقاذ أورليان، وواجه إيتيوس مهمة عسيرة؛ لأن جيشه النظامي كان صغيرًا، والعديد من المرتزقة الذين استأجرهم للاشتراك معه في القتال، كانوا متحالفين مع أتيلا.

وفي النهاية أقنع القائد إيتيوس الجرمان بالانضمام له، وعلى رأسهم ثيودريك الأول ملك القوط، وكان حجم جيوش الرومان نصف حجم جيش الهون تقريبًا، وعندما اقتربت الجيوش الرومانية المتحالفة، انسحب أتيلا؛ لأنه لا يود أن يحشر بين الجيش المتقدم وأسوار المدينة، نحو وادي نهر مارن، وترك وراءه حرسًا خلفين من خمسة عشر ألف مقاتل، إلا أن إيتيوس دمر هذه القوة بهجوم ليلي جريء، مما أعطى جيشه الثقة بأن باستطاعتهم دحر جيش الهون العظيم.

ومن نتائج هذه المعركة تأسيس مدينة فينيسيا (البندقية)، وذلك أن أتيلا -ذلك المدمر الهمجي- وضع دون أن يقصد أساس جمهورية أحيت في عصر الأقطاع الأوربي فن الصناعة والتجارة، وكان الاسم الأشهر فينيسيا يطلق فيما مضى على ولاية كبيرة خصبة من ولايات إيطاليا تمتد من حدود بونونيا إلى نهر أدوا، ومن نهر البو إلى جبال الألب، وقبل غارات البرابرة ازدهرت خمسون مدينة فينسية، وكان يسودها السلام والرخاء، واحتلت أكويليا أبرز مكان بينها، غير أن المجد القديم الذي كان لمدينة بادوا كان قائمًا على الزراعة والصناعة، وامتلك خمسمائة مواطن فيها من طبقة الفرسان أملاكًا تبلغ قيمتها -في أدق التقديرات- مليونا وسبعمائة ألف من الجنيهات، وكثير من أسرات أكويليا وبادوا والمدن المجاورة، وهي الأسرات التي فرت من سيوف أتيلا والهون، وجدت ملاذًا آمنًا وإن كان مغمورًا في الجذر المجاورة.

وأثرت معركة شالون كذلك في وضع المواطن الروماني وعلاقته بالإمبراطورية الرومانية، ولابد للأجيال التالية من أن تعترف في شيء من الدهشة أن التفسير الجائر لحدث عابر أو خرافي قد تحقق بصورة خطيرة، وذلك بانهيار الإمبراطورية الغربية، غير أن انهيارًا كهذا كانت تتنبئ به نذر في كل يوم أقل بأسًا في نظر أعدائها، وأكثر ظلمًا وبعثًا للكراهية في نظر رعاياها. فالضرائب كانت تتضاعف مع تفاقم المحنة العامة، وكلما زادت الضرورة إلى الاقتصاد زاد الإسراف، وطرح الأغنياء الظالمون كل العبء عن كواهلهم وألقوه على كواهل الناس، بل وتحايلوا على حرمانهم من المتع البريئة التي قد تخفف من شقائهم في بعض الأحيان، وعمدت الحكومة إلى التحقيق والتفتيش والمصادرة لبضائعهم وتعذيب أشخاصهم، كل أولئك

أرغم رعايا فالنتيان على تفضيل طغيان البرابرة الأكثر بساطة، أو على الفرار إلى الغابات أو الجبال، أو إلى قبول وضع الخدم المرتزقة على خسته وحقارته، ووصل بهم الأمر إلى جحود اسم "مواطن روماني" وكراهيته، بعد أن كان فيما مضى محط أطماع العالم أجمع.

وأصبحت ولايات أرموريكا في بلاد الغال والجزء الأكبر من أسبانيا في وضع مستقل مرتبك نتيجة تحالف شعوب الباجودي – Bagaudae أما وزراء الإمبراطور فلم يكن في وسعهم إلا ملاحقة الثوار الذين خلفوهم باصدار قوانين الجرمان وإرسال قوات عديمة الفاعلية، ولو أن جميع الغزاة البرابرة هلكوا في ساعة واحدة، فإن هلاكهم الكامل هذا ما كان في مقدوره أن يعيد إلى الإمبراطورية الغربية كيانها، وإذا كانت روما قد ظلت قائمة، إلا أنها ظلت قائمة على أنقاض الحرية والفضيلة والشرف.

وكان لظهور الهون في ٣٧٥م، وبعد ذلك بحوالي قرن من الزمان طويت صفحتهم من التاريخ، وحيث أن إمبراطوريتهم قدر لها البقاء لفترة قصيرة نسبيًا (وربما أنهم لم يتمكنوا إطلاقًا من الاستيلاء على جزء كبير من الإمبراطورية الرومانية لأنفسهم) لذلك يتساءل المرء عن سبب الأهمية المتعلقة بمعركة شالون التي حددت لهم بداية النهاية، ولماذا اعتبرت المعركة التي دارت رحاها في ربيع عام ٤٥١م معركة فاصلة؟!

ولقد أثبتت معركة شالون للإمبراطورية الرومانية الغربية، وللقبائل الجرمانية أن الهون يمكن هزيمتهم، إذ لو قدر لأتيلا أن يعيش ربع قرن آخر، ولو أن الهزيمة التي مني بها في شالون حطمت أسطورة أنه لا يغلب لكان في إمكانه أن يفتح كل الإمبراطورية الرومانية الغربية.

وقد يخطئ التاريخ والتراث، كما في حالة الوندال الذين لا يستحقون الشهرة التي التصقت بهم كمخربين متوحشين، غير أن التاريخ والتراث لم يكونا مخطئين فيما يتعلق بالهون.

إن موقعة شالون قد عجلت بنهاية وجود أعتى الغزاة "البرابرة" الذين تعرضت لهم أوربا، كما أن كلمتي الهون وأتيلا تستحضران في الذهن صورة رهيبة للمدن التي دمرت تدميرًا كاملا، والمجتمعات التي ذبح أفرادها والشعوب التي تحولت إلى عبيد.

لقد أبدى الهون عدم المبالاة بالثقافات الراقية، ولو قدر لأتيلا النصر في شالون لعانى المستوى الثقافي لغرب أوربا من التدهور الشديد والسريع، ولا يشك أحد في مدى الخوف الذي كان من الممكن أن تثيره صورة أتيلا في فكر المعاصرين، إذ بعد مرور حوالي خمسة عشر عامًا على موت أتيلا خرجت كل القسطنطينية عن بكرة أبيها لتحمل رأس ابنه المذبوح دينزيك -Dinzic- في موكب انتصار.

"إن الأهمية الحقيقية لأتيلا وشالون تكمن في حقيقة أن هجوم أتباعه من الهون أجبر الرومان والشعوب التيتونية على الاعتراف بأن المصالح المشتركة -وإن شئت الحضارة- كانت في خطر، ومن ثم دفعهم ذلك إلى التحالف القوي الذي اعتمد عليه التقدم العالمي في المستقبل".

لقد كانت معركة شالون حدًا فاصلا في حياة الجرمان، حيث استعادوا كرامتهم وهيبتهم من جديد بعد الذل والهوان الذي لاقوه على يد أتيلا وجنوده، وأصبحت شالون مرتبطة بكل الذكريات والدمار والحطام الذي أحدثه أتيلا، ولولا شالون لدمر الغرب الأوربي وضاعت معالم الفكر والحضارة.

ولقد أثبتت المعركة أيضًا أنه لا يوجد أعداء دائمين ولا أصدقاء دائمين، ولكن يوجد مصالح دائمة مشتركة، التي كانت سببًا في هذا

التحالف الروماني الجرماني الضخم لاستئصال شأفة هـذا الطـاعون المدمر في عالم الفكر والحضارة.

ولا يزال المؤرخون إلى الآن يناقشون آثـار المعركـة، ففـي الوقت الذي لم تكن فيه المعركة حاسمة، حيث تجنب أتـيلا الهزيمـة وأبقى جيشه سليمًا، إلا أن لها أهمية كبرى، فقد أشـارت إلـى زروة القوى التي وصل إليها الهون، وأبقى فشلهم في إحتلال أوربا، الـدين والحضارة المسيحية سائدة فيها عند فشل الجيش الهوني في الاستيلاء على روما في السنة التالية، وازدادت قوة البابويـة والإمبراطوريـة بشكل كبير، وطغت الثقافة والديانة الكاثوليكية على أوربـا الغربيـة لألف سنة قادمة.

** ** **

المصادر والمراجع

أولا : المراجع العربية والمعربة:

(١) إبراهيم علي طرخان:
- دولة القوط الغربيين، القاهرة، ١٩٥٨.
- سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب ٤٧٦م كلية الآداب – جامعة القاهرة، المجلد ٢٠، العدد الثاني، ديسمبر ١٩٥٨.

(٢) إدوارد جيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، جـ٢، ترجمة محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طـ٢، ١٩٩٧م.

(٣) الباز العريني: تاريخ أوربا في العصور الوسطى، بيروت، ١٩٦٨م.

(٤) جوزيف داهموس: سبع معارك فاصلة في التاريخ، ترجمة محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م.

(٥) جوزيف نسيم يوسف، تاريخ العصور الوسطى وحضاراتها، الإسكندرية، ١٩٨٢.

(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا في العصور الوسطى، جـ١، الأنجلو المصرية، طـ٩، ١٩٨٣م.

(٧) فشر: تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زيادة، الباز العريني، طـ١، القسم الأول، دار المعارف، ١٩٥٠.

(٨) كريستوفر دوسن: تكوين أوربا – ترجمة محمد مصطفى زيادة، سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٦٧.

(٩) محمد مرسي الشيخ: تاريخ أوربا في العصور الوسطى، الإسكندرية، ١٩٩٨م.
(١٠)محمود سعيد عمران: معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى، بيروت، ١٩٨٣.
(١١)موسى. هـ: ميلاد العصور الوسطى، ترجمة عبد العزيز جاويد، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مراجعة السيد الباز العريني، ١٩٩٨م.
(١٢)مايكل لي لاننغ: المعارك المائة، قصة أكبر مائة معركة مؤثرة في التاريخ، ترجمة صادق عيد علي الركابي، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٧م.
(١٣)نورمان كانتور: التاريخ الوسيط، ترجمة قاسم عبدة قاسم، قصة حضارة البداية والنهاية، القسم الأول، دار المعارف، ١٩٨٣.

ثانيا : المصادر والمراجع الأجنبية:

(1) Ammianus Marcellinus, with an English translation, by: Joh G. rolf, The loeb classical library, Cambridge, 1930.

(2) Bernurd, S.; Ahistory of Alans in the west, minnesta, 1973.

(3) Boak, A.E.R; A history of Rome to 565, New York, 1930.

(4) Bradley, H., The Goths, Fifth edition, London, 1887.

(5) Brehier, L., The Life and Death of Byzantium, Translated by Margaret, V., Sigapore, 1977.

(6) Brooks, E.W; The Emperor Zenon and The Isurians English Historical review, London, 1893.

(7) Bury, J.B; A History of The Eastern, Roman Empire, London, 1912.

(8) Cambridge, Medieval History, Cambridge, 1924.

(9) Cantor, N.E; Medieval History, The Life and Death of a civilization, second. (U.S.A), 1969.

(10) Dawson, C.; The Making of Europe, London, 1935.

(11) Deanesly, M., A History of Early Medieval Europe, London, 1956.

(12) Dill, S.; Roman Society in The Last Century of The Western Empire, London, 1925.

(13) Edit, H.S; Historians History of The World, Vol. VI, New York, 1904.

(14) Flich, A., Lachretiente Medievole, Paris, 1929.

(15) Gordon, C.D; The Age of Attila, Press, 1960.

(16) Hodgking, T., Italy and Herinvaders, 8 Vols, Second Edition, London, 1919.

(17) Hoyt, R.S & Chodorow, S., Europe in the Middle Ages, (U.S.A) 1975.

(18) John Julius, Byzantium The Early Centuries Group, London, 1988.

(19) Jones, A. H.M, The Decline of The Ancient World, London, 1975.

(20) Jordanes, The Origins and Deeds of the Goths, Trans, by Charles Mierow, Princeton University, 1908.

(21) Katz, S. The Decline of Rome and The Rise of Mediaval Europe, New York, 1955.

(22) Lot, F.,

- The End of The Ancient World and The Beginnings The Middle Ages, London, 1931.
- Les Invasions Germaniques, Paris, 1931.

(23) Lot, F. & PF ister, C.md Ganshof, F.L; Les Destinees de L'Empire en occident de 395 & 768, Paris, 1940.

(24) Moss, H; The Birth of The Middle Ages, London, 1947.

(25) Oman, C.; History of The Art of The World, London, 1898.

(26) Ostrogorsky, G., History of The Byzantine State, Trans by John Huss, Oxford, 1956.

(27) Outo, J., The World of The Huns, California, 1973.

(28) Oxford Dictionary of Byzantiutium 3 vol, Oxford, 1991.

(29) Pirenn, H; A History of Europe From The 16 The Century, London, 1936.

(30) Previte – Orton; The Shorter Cambridge Mideval History, Vol. I, Cambridge, 1971.

(31) Rice, C.T, The Byzantium, London, 1962.

(32) Shmidt, L., The Visigoths in Gaul 417-507, in Com. Med. Hist, Vol. I, Cambridge, 1975.

(33) Simons, G.,

- The Birth of Europe, Spain, 1978.
- Babarian Europe, New York, (No date).

(34) Soutlar, R; A History of Mediaeval Peoples, London, 1947.

(35) Stephen Son, C.; Mediaeva; History Europe From The Second to The Six Tenth Century, Fourth Edition, (U.S.A), 1962.

(36) Taylor, H.O; The Mediaeval Mind, London, 1936.

(37) Thompson, J.W, The Middle Ages, London, 1931.

(38) Vasiliev, A.; History of The Byzantium Empire, University of Wisconsin, 1973.

(39) Villari, P. The Barbarian Invasion of Italy, London, 1902.

(40) Wallace – Hadrill; The Barbarian West, London, 1952.

الموضوع	الصفحة
المقدمـــــــة	٥
الفصل الأول :	٩
الوضع في الإمبراطورية الرومانية قبـل شالون	
الفصل الثانـي :	٤٧
أحداث معركة شالون	
الفصل الثالث :	٨٧
الوضع في الإمبراطورية بعد شالون	
نتائج معركة شالون	١٢٩
المصادر والمراجع:	١٣٧
أولا : المراجع العربية والمعربة:	١٣٧
ثانيا : المصادر والمراجع الأجنبية:	١٣٨

هذا الكتاب

على امتداد تاريخ الأمم والشعوب ، حدثت الكثير من المعارك ، وتميزت كثير من هذه المعارك بأنها كانت معارك فاصلة، ويمكن القول إنها غيرت مجرى التاريخ، نظرًا لأهميتها وما ترتبت عليها من نتائج بالغة الأثر على حياة هذه الأمم، وأحدث تغيرات في مسار تاريخ العديد من الشعوب، وإن تباينت أهواء المؤرخين والكتاب ممن سجلوا ودونوا أخبار هذه الأحداث، واختلفت آراؤهم حول أهمية ونتائج هذه المعارك.

وقد ساهمت السياسة والدين والفلسفة والعلم في التحولات المؤثرة في التاريخ، وتظل مؤثرة بقوة في الأحداث، عندما تمتلك القبيلة أو الأمة أو المملكة جيشًا قويًا يستطيع أن يحسم المعارك لصالحها.

ومن الصعب في المعارك القديمة مثل معركة شالون (سهل موريـاك) Chalons عام ٤٥١ م إيجاد مصادر تتفق على أعداد الجنود المشتركة بين الفريقين وعدد القتلى في الجانبين وكذلك عدد الأسرى وعدد المصابين.

ومعركة شالون أشعلتها قبائل الهون – HUNS – داخل حدود الإمبراطورية الرومانية، وانهزم فيها الهون في نهاية الأمر ليتم إنقاذ الغرب الأو[illegible] الرومانية من عسف تلك الشعوب الهم[illegible] الإمبراطورية الغربية والقضاء على م[illegible] وحضارة.

وقد كانت معركة شالون السبب [illegible] أسطورة جيش الهون الذي لا يقهر [illegible] غرب أوربا، بل وأنقذت القسطنطينية [illegible] سيظل دائمًا يستنزف مواردها ويهدد أ[illegible]

Bibliotheca Alexandrina
1202853

